الله بلاء، والصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء». فكلام لا يجب التسليم لقائله لأنه ذكر ما سنح له تصوره، وإنما يجب التسليم للنقل المصدق عن القائل المعصوم، ونحن نشرح هذه الكلمات.

أما قوله: «الصبر لله غناء» فإن الصبر لله بترك حظوظ النفس ومرادها لمراد الله وهذا أشق شيء على النفس وأصعبه، فإن قطع المفازة التي بين النفس وبين الله بحيث يسير منها إلى الله شديد جداً على النفس، بخلاف السفر إلى الآخرة فإنه سهل كما قال الجنيد: «السير من الدنيا إلى الآخرة سهل، يعني على المؤمن، وهجران الخلق في جنب الحق شديد، والسير من النفس إلى الله صعب شديد، والصبر مع الله أشد».

وأما قوله: «والصبر بالله بقاء» فلأن العبد إذا كان بالله هان عليه كل شيء ويتحمل الأثقال ولم يجد لها ثقلاً، فإنه إذا كان بالله لا بالخلق ولا بنفسه كان لقلبه وروحه وجودٌ آخر وشأن آخر، غير شأنه إذا كان بنفسه وبالخلق، وبهذا الحال لا يجد عناء الصبر ولا مرارته، وتنقلب مشاق التكليف له نعيماً وقرة عين، كما قال بعض الزهاد: «عالجت قيام الليل سنة وتنعمت به عشرين سنة». ومن كانتَ قرة عينه في الصلاة لم يجد لها مشقة وكلفة.

وأما قوله: «والصبر في الله بلاء» فالبلاء فوق العناء، والصبر فيه فوق الصبر له وأخص منه كما تقدم، فإن الصبر فيه بمنزلة الجهاد فيه وهو أشق من الجهاد له، فكل مجاهد في الله وصابر في الله، مجاهد له وصابر له من غير عكس، فإن الرجل قد يجاهد ويصبر لله مرة ليقع عليه اسم من فعل ذلك لله، ولا يقع عليه اسم من فعل ذلك في الله، وإنما يقع على من انغمس في الجهاد والصبر ودخل الجنة.

وأما قوله: «والصبر مع الله وفاء» فلأن الصبر معه هو الثبات معه على أحكامه، ولا يزيغ القلب عن الإنابة ولا الجوارح عن الطاعة، فتعطى

المعية حقها من التوفية كما قال تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفّى﴾ أي وفّى ما أُمر به بصبره مع الله على أوامره.

وأما قوله: «والصبر عن الله جفاء» فلا جفاء أعظم ممن صبر عن معبوده وإلهه ومولاه الذي لا مولى له سواه، ولا حياة له ولا صلاح ولا نعيم إلا بمحبته والقرب منه وإيثار مرضاته على كل شيء، فأي جفاء أعظم من الصبر عنه. وهذا معنى قول من قال: الصبر على ضد بين صبر العابدين وصبر المحبين، فصبر العابدين أحسنه أن يكون محفوظاً، وصبر المحبين أحسنه أن يكون مرفوضاً كما قيل:

يبينَ يومِ البَيْنْ أن اعتزامهَ على الصبر من إحدى الظنون الكواذب

وقال الآخر:

ولما دعوتُ الصبرَ بعدَك والبكا أجاب البكا طوعاً ولم يجبِ الصبرُ

قالوا: ويدل عليه أن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه قال: ﴿فصبرٌ جميل﴾ ورسول الله ﷺ إذا وعد وفى، ثم حمله الوجد على يوسف والشوق إليه أن قال: ﴿يا أَسَفا على يوسفَ﴾ [يوسف: ٨٤] فلم يكن عدم صبره عنه منافياً لقوله: ﴿فصبرٌ جميل﴾ فإن الصبر الجميل هو الذي لا شكوى معه، ولا تنافيه الشكوى إلى الله سبحانه وتعالى فإنه قد قال: ﴿إنما أشكو بَثِّي وحُزْني إلى الله﴾. والله تعالى أمر رسوله بالصبر الجميل وقد امتثل ما أمر به وقال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي» الحديث. وأما قول بعضهم: إن الصبر الجميل أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يُدرى من هو، فهذا من الصبر الجميل، لأن من فقده فقد الصبر الجميل، فإن ظهور أثر المصيبة على العبد مما لا يمكن دفعه البتة، وبالله التوفيق.

وزاد بعضهم في الصبر قسماً آخر وسماه الصبر على الصبر وقال: هو أن يستغرق في الصبر حتى يعجز الصبر عن الصبر، كما قيل:

صابرَ الصبرَ فاستغاثَ به الصبرُ فصاحَ المحبُّ بالصبر صبرَا

وليس هذا خارجاً عن أقسام الصبر، وإنما هو المرابطة على الصبر والثبات عليه، والله أعلم.

الباب الحادي عشر

في الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام

كل أحد لا بد أن يصبر على بعض ما يكره، إما اختياراً وإما اضطراراً، فالكريم يصبر اختياراً لعلمه بحسن عاقبة الصبر، وأنه يُحمد عليه، ويُذم على الجزع، وأنه إن لم يصبر لم يرد الجزع عليه فائتاً، ولم ينتزع عنه مكروهاً، وأن المقدور لا حيلة في دفعه، وما لم يُقْدر لا حيلة في تحصيله، فالجزع ضرُّهُ أقرب من نفعه، قال بعض العقلاء: «العاقل عند نزول المصيبة يفعل ما يفعله الأحمق بعد شهر» كما قيل:

وأنَّ الأمرَ يُفضى إلى آخر فيصيرُ آخرُه أولاً

فإذا كان آخر الأمر الصبر والعبد غير محمود، فما أجدر به أن يستقبل الأمر في أوله بما يستدبره الأحمق في آخره، وقال بعض العقلاء: من لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم. فالكريم ينظر إلى المصيبة فإن رأى الجزع يردها ويدفعها فهذا قد ينفعه الجزع، وإن كان الجزع لا ينفعه فإنه يجعل المصيبة مصيبتين.

فصل: وأما اللئيم فإنه يصبر اضطراراً فإنه يحوم حول ساحة الجزع فلا يراها تجدي عليه شيئاً فيصبر صبر الموثق للضرب، وأيضاً فالكريم يصبر في طاعة الرحمن، واللئيم يصبر في طاعة الشيطان، فاللئام أصبر الناس في طاعة أهوائهم وشهواتهم وأقل الناس صبراً في طاعة ربهم، فيصبر على البذل في طاعة الشيطان أتم صبر، ولا يصبر على البذل في طاعة الله في أيسر شيء، ويصبر على تحمل المشاق لهوى نفسه في مرضاة عدوه، ولا يصبر على أدنى المشاق في مرضاة ربه، ويصبر على ما يقال في عرضه في

المعصية، ولا يصبر على ما يقال في عرضه إذا أوذي في الله بل يفرّ من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خشية أن يُتكلم في عرضه في ذات الله، ويبذل عرضه في هوى نفسه ومرضاته صابراً على ما يقال فيه، وكذلك يصبر على التبذل بنفسه وجاهه في هوى نفسه ومراده، ولا يصبر على التبذل لله في مرضاته وطاعته، فهو أصبر شيء على التبذل في طاعة الشيطان ومراد النفس، وأعجز شيء عن الصبر على ذلك في الله، وهذا أعظم اللؤم، ولا يكون صاحبه كريماً عند الله، ولا يقوم مع أهل الكرم إذا نودي بهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد؛ ليعلم أهل الجمع من أولى بالكرم اليوم، أين المتقون.

الباب الثاني عشر
في الأسباب التي تعين على الصبر

لما كان الصبر مأموراً به جعل الله سبحانه له أسباباً تعين عليه وتوصل إليه، وكذلك ما أمر الله سبحانه بالأمر إلا أعان عليه ونصب له أسباباً تمده وتعين عليه، كما أنه ما قدر داءً إلا وقدر له دواء وضمن الشفاء باستعماله، فالصبر وإن كان شاقاً كريهاً على النفوس فتحصيله ممكن، وهو يتركب من مفردين: العلم والعمل، فمنهما تركب جميع الأدوية التي تُداوى بها القلوب والأبدان، فلا بد من جزء علمي وجزء عملي، فمنهما يركب هذا الدواء الذي هو أنفع الأدوية. فأما الجزء العلمي فهو إدراك ما في المأمور من الخير والنفع واللذة والكمال، وإدراك ما في المحظور من الشر والضر والنقص، فإذا أدرك هذين العِلْمَين كما ينبغي أضاف إليهما العزيمة الصادقة والهمة العالية والنخوة والمروءة الإنسانية، وضم هذا الجزء إلى هذا الجزء، فمتى فعل ذلك حصل له الصبر وهانت عليه مشاقه، وحَلَتْ له مرارته وانقلب ألمه لذةً، وقد تقدم أن الصبر مصارعة باعث العقل والدين لباعث الهوى والنفس، وكل متصارعين أراد أن يتغلب أحدهما على الآخر فالطريق فيه تقوية من أراد أن تكون الغلبة له ويضعف الآخر، كالحال مع

القوة والمرض سواء؛ فإذا قوي باعث شهوة الوقاع المحرم وغلب بحيث لا يملك معها فرجه، أو يملكه ولكن لا يملك طرفه، أو يملكه ولكن لا يملك قلبه؛ بل لا يزال يحدثه بما هناك وبعده ويمنيه ويصرفه عن حقائق الذكر والتفكر فيما ينفعه في دنياه وآخرته، فإذا عزم على التداوي ومقاومة هذا الداء فليضعفه أولاً بأمور:

أحدها: أن ينظر إلى مادة قوة الشهوة فيجدها من الأغذية المحركة للشهوة، إما بنوعها أو بكميتها وكثرتها، ليحسم هذه المادة بتقليلها، فإن لم تنحسم فليبادر إلى الصوم فإنه يضعف مجاري الشهوة ويكسر حدتها؛ ولا سيما إذا كان أكله وقت الفطر معتدلاً.

الثاني: أن يجتنب محرك الطلب وهو النظر، فليقصر لجام طرفه ما أمكنه؛ فإن داعي الإرادة والشهوة إنما يهيج بالنظر، والنظر يحرك القلب بالشهوة؛ وفي المسند عنه ﷺ: «النظر سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس». وهذا السهم يشرده إبليس نحو القلب ولا يصادف جُنَّة[1] دونه؛ وليست الجنة إلا غض الطرف أو التحيز والانحراف عن جهة الرمي؛ فإنه إنما يرمي هذا السهم عن قوس الصور، فإذا لم تقف على طريقها أخطأ السهم، وإن نصبت قلبك عرضاً فيوشك أن يقتله سهم من تلك السهام المسمومة.

الثالث: تسلية النفس بالمباح المعوض عن الحرام؛ فإن كل ما يشتهيه الطبع ففيما أباحه الله سبحانه غنية عنه، وهذا هو الدواء النافع في حق أكثر الناس، كما أرشد إليه النبي ﷺ فالدواء الأول يشبه قطع العلف عن الدابة الجموح، وعن الكلب الضاري لإضعاف قوتهما. والدواء الثاني يشبه تغييب اللحم عن الكلب، والشعير عن البهيمة؛ لئلا تتحرك قوتهما له عند المشاهدة، والدواء الثالث يشبه إعطاؤهما من الغذاء ما يميل إليه طبعهما

---

(١) جُنّة: سترة ووقاية.

بحسب الحاجة لتبقى معه القوة فتطيع صاحبها؛ ولا تغلب بإعطائها الزيادة على ذلك.

الرابع: التفكر في المفاسد الدنيوية المتوقعة من قضاء هذا الوطر، فإنه لو لم يكن جنة ولا نار لكان في المفاسد الدنيوية ما ينهى عن إجابة هذا الداعي، ولو تكلفنا عدها لفاقت الحصر، ولكن عين الهوى عمياء.

الخامس: الفكرة في مقابح الصورة التي تدعوه نفسه إليها إن كانت معروفة بالإجابة له ولغيره؛ فيعز نفسه أن يشرب من حوض ترده الكلاب والذئاب، كما قيل:

سأتركُ وصلَكم شَرَفاً وعِزّاً ... لخسّةِ سائرِ الشركاءِ فيه

وقال آخر:

إذا كثرَ الذبابُ على طعامٍ ... رفعتُ يدي ونفسي تشتهيه
وتجتنبُ الأسودُ ورودَ ماءٍ ... إذا كان الكلابُ يَلُغْنَ فيه

وليذكر مخالطة ريقه لريق كل خبيث ريقه الداء الدوي، فإن ريق الفاسق داء، كما قيل:

تسلَّ يا قلب عن سمح بمهجته ... مبذل كل ما يلقاه يقرفه
كالماء أيّ صيدٍ يأتيه ينهلُه ... والغصنُ أيّ نسيم مسَّ يعطفه
وإن حلا ريقٌ فاذكرْ مرارتَه ... في فمِ أبخَرَ يحفيه ويرشفُه

ومن له أدنى مروءة ونخوة يأنف لنفسه من مواصلة من هذا شأنه، فإن لم تجبه نفسه إلى الإعراض ورضي بالمشاركة فلينظر إلى ما وراء هذا اللون والجمال الظاهر من القبائح الباطنة، فإن من مَكَّنَ نفسه من فعل القبائح فنفسه أقبحٍ من نفوس البهائم، فإنه لا يرضى لنفسه بذلك حيوان من الحيوانات أصلاً إلا ما يحكى عن الخنزير، وأنه ليس في البهائم لوطي سواه، فقد رضي هذا الممكن من نفسه أنه يكون بمنزلة الخنزير. وهذا

القبح يغطي كل جمال وملاحة في الوجه والبدن، غير أن حبك الشيء يعمي ويصم، وإن كانت الصورة أنثى فقد خانت الله ورسوله وأهلها وبعلها ونفسها وأورثت ذلك لمن بعدها من ذريتها فلها نصيب من وزرهم وعارهم، ولا نسبة لجمال صورتها إلى هذا القبح البتة، وإذا أردت معرفة ذلك فانظر إلى القبح الذي يعلو وجه أحدهما في كبره، وكيف يقلب الله سبحانه تلك المحاسن مقابح حتى تعلو الوحشة والقبح وجهه، كما قيل شعراً:

لـو فكَّـرَ العـاشـقُ في منـتهـى حسن الـذي يسبيـه لم يسبـه

وتفصيل هذه الوجوه يطول جداً فيكفي ذكر أصولها.

فصل: وأما تقوية باعث الدين فإنه يكون بأمور:

أحدها: إجلال الله تبارك وتعالى أن يُعصى وهو يَرى ويَسمع، ومن قام بقلبه مشهد إجلاله لم يطاوعه قلبه لذلك البتة.

الثاني: مشهد محبته سبحانه فيترك معصيته محبة له، فإن المحب لمن يحب مطيع، وأفضل الترك ترك المحبين، كما أن أفضل الطاعة طاعة المحبين، فبين ترك المحب وطاعته وترك من يخاف العذاب وطاعته بون بعيد.

الثالث: مشهد النعمة والإحسان فإن الكريم لا يقابل بالإساءة من أحسن إليه، وإنما يفعل هذا لئام الناس، فليمنعه مشهد إحسان الله تعالى ونعمته عن معصيته حياء منه أن يكون خير الله وإنعامه نازلاً إليه، ومخالفاته ومعاصيه وقبائحه صاعدة إلى ربه، فملك نزل بهذا، وملك يعرج بذاك، فأقبح بها من مقابلة.

الرابع: مشهد الغضب والانتقام، فإن الرب تعالى إذا تمادى العبد في معصيته غضب، وإذا غضب لم يقم لغضبه شيء، فضلاً عن هذا العبد الضعيف.

الخامس: مشهد الفوات وهو ما يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة، وما يحدث له بها من كل اسم مذموم عقلاً وشرعاً وعرفاً، ويزول عنه من الأسماء الممدوحة شرعاً وعقلاً وعرفاً، ويكفي في هذا المشهد مشهد فوات الإيمان الذي أدنى مثقال ذرة منه خير من الدنيا وما فيها أضعافاً مضاعفة، فكيف أن يبيعه بشهوة تذهب لذاتها وتبقى تبعتها، تذهب الشهوة وتبقى الشقوة، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن». قال بعض الصحابة: ينزع منه الإيمان حتى يبقى على رأسه مثل الظلَّة، فإن تاب رجع إليه. وقال بعض التابعين: ينزع عنه الإيمان كما ينزع القميص، فإن تاب لبسه، ولهذا روي عن النبي ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري: «الزناة في التنور عراة» لأنهم تعروا من لباس الإيمان، وعاد تنور الشهوة الذي كان في قلوبهم تنوراً ظاهراً يُحمى عليه في النار.

السادس: مشهد القهر والظفر، فإن قهر الشهوة والظفر بالشيطان له حلاوة ومسرة وفرحة عند من ذاق ذلك أعظم من الظفر بعدوه من الآدميين وأحلى موقعاً وأتم فرحة، وأما عاقبته فأحمد عاقبة، وهو كعاقبة شرب الدواء النافع الذي أزال داء الجسد وأعاده إلى صحته واعتداله.

السابع: مشهد العوض، وهو ما وعد الله سبحانه من تعويض مَن ترك المحارم لأجله ونهى نفسه عن هواها، وليوازنه بين العوض والمعوض، فأيهما كان أولى بالإيثار اختاره وارتضاه لنفسه.

الثامن: مشهد المعية وهو نوعان: معية عامة ومعية خاصة، فالعامة اطلاع الرب عليه وكونه بعينه لا تخفى عليه حاله، وقد تقدم هذا، والمقصود هنا المعية الخاصة كقوله: ﴿إن الله مع الصابرين﴾ وقوله: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ وقوله: ﴿وإن الله لمع المحسنين﴾ فهذه المعية الخاصة خير وأنفع في دنياه وآخرته ممن قضى وطره ونال شهوته على التمام من أول عمره إلى آخره، فكيف يؤثر عليها لذة

منغصة منكدة في مدة يسيرة من العمر؟ إنما هي كأحلام نائم أو كظل زائل.

التاسع: مشهد المغافصة[1] والمعاجلة، وهو أن يخاف أن يغافصه الأجل فيأخذه الله على غرة، فيحال بينه وبين ما يشتهي من لذات الآخرة، فيا لها من حسرة ما أمرَّها وما أصعبها، لكن ما يعرفها إلا من جربها، وفي بعض الكتب القديمة: يا من لا يأمن على نفسه طرفة عين ولا يتم له سرور يوم، الحذر الحذر.

العاشر: مشهد البلاء والعافية فإن البلاء في الحقيقة ليس إلا الذنوب وعواقبها والعافية المطلقة هي الطاعات وعواقبها، فأهل البلاء هم أهل المعصية وإن عوفيت أبدانهم، وأهل العافية هم أهل الطاعة وإن مرضت أبدانهم، وقال بعض أهل العلم في الأثر المروي: إذا رأيتم أهل البلاء فاسألوا الله العافية، فإن أهل البلاء المبتلون بمعاصي الله والإعراض والغفلة عنه، وهذا وإن كان أعظم البلاء فاللفظ يتناول أنواع المبتلين في أبدانهم وأديانهم، والله أعلم.

الحادي عشر: أن يعوِّد باعث الدين ودواعيه مصارعة داعي الهوى ومقاومته على التدريج قليلاً قليلاً حتى يدرك لذة الظفر، فتقوى حينئذ همته، فإن من ذاق لذة شيء قويت همته في تحصيله، والاعتياد لممارسة الأعمال الشاقة تزيد القوى التي تصدر عنها تلك الأعمال، ولذلك تجد قوى الحمالين وأرباب الصنائع الشاقة تتزايد بخلاف البزاز والخياط ونحوهما، ومن ترك المجاهدة بالكلية ضعف فيه باعث الدين وقوي فيه باعث الشهوة، ومتى عود نفسه مخالفة الهوى غلبه متى أراد.

الثاني عشر: كف الباطن عن حديث النفس، وإذا مرت به الخواطر نفاها ولا يؤويها ويساكنها فإنها تصير أماني، وهي رؤوس أموال المفاليس،

---

(١) المغافصة: من غافص: الأخذ على غِرّة.

ومتى ساكن الخواطر صارت أماني، ثم تقوى فتصير هموماً، ثم تقوى فتصير إرادات، ثم تقوى فتصير عزماً يقترن به المُراد، فدفع الخاطر الأول أسهل وأيسر من دفع أثر المقدور بعد وقوعه وترك معاودته.

الثالث عشر: قطع العلائق والأسباب التي تدعوه إلى موافقة الهوى. وليس المراد أن لا يكون له هوى، بل المراد أن يصرف هواه إلى ما ينفعه، ويستعمله في تنفيذ مراد الرب تعالى، فإن ذلك يدفع عنه شر استعماله في معاصيه، فإن كل شيء من الإنسان يستعمله لله، فإن الله يقيه شر استعماله لنفسه وللشيطان، وما لا يستعمله لله استعمله لنفسه وهواه ولا بد. فالعلم إن لم يكن لله كان للنفس والهوى، والعمل إن لم يكون لله كان للرياء والنفاق، والمال إن لم ينفق في طاعة الله أنفق في طاعة الشيطان والهوى، والجاه إن لم يستعمله صاحبه في مرضاة الله استعمله في هواه وحظوظه، والقوة إن لم يستعملها في أمر الله استعملته في معصيته، فمن عوَّد نفسه العمل لله لم يكن عليه أشق من العمل لغيره، ومن عوَّد نفسه العمل لهواه وحظه لم يكن عليه أشق من الإخلاص والعمل لله، وهذا في جميع أبواب الأعمال، فليس شيء أشق على المنفق لله من الإنفاق لغيره وكذا بالعكس.

الرابع عشر: صرف الفكر إلى عجائب آيات الله التي ندب عباده إلى التفكر فيها، وهي آياته المتلوة وآياته المجلوة، فإذا استولى ذلك على قلبه دفع عنه محاظرة الشيطان ومحادثته ووسواسه، وما أعظم غبن من أمكنه أن لا يزال محاظراً للرحمن وكتابه ورسوله والصحابة، فرغب عن ذلك إلى محاظرة الشيطان من الإنس والجن، فلا غبن بعد هذا الغبن والله المستعان.

الخامس عشر: التفكر في الدنيا وسرعة زوالها وقرب انقضائها، فلا يرضى لنفسه أن يتزود منها إلى دار بقائه وخلوده أخس ما فيها وأقله نفعاً إلا ساقط الهمة دنيء المروءة ميت القلب، فإن حسرته تشتد إذا عاين حقيقة ما تزوده وتبين له عدم نفعه له، فكيف إذا كان ترك تزود ما ينفعه إلى زاد

يعذب به ويناله بسببه غاية الألم، بل إذا تزود ما ينفعه وترك ما هو أنفع منه له كان ذلك حسرة عليه وغبناً.

السادس عشر: تعرّضه إلى مَن القلوب بين أُصْبُعَيه وأزِمَّة الأمور بيديه، وانتهاء كل شيء إليه على الدوام، فلعله أن يصادف أوقات النفحات، كما في الأثر المعروف: «إن لله في أيام دهره نفحات، فتعرضوا لنفحاته، واسألوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم». ولعله في كثرة تعرضه أن يصادف ساعة من الساعات التي لا يسأل الله فيها شيئاً إلا أعطاه، فمن أعطي منشور الدعاء أعطي الإجابة، فإنه لو لم يرد إجابته لما ألهمه الدعاء، كما قيل:

لو لم ترِدْ نيلَ ما أرجو وأطلبُه من جودِ كَفِّكَ ما عودتني الطلبا

ولا يستوحش من ظاهر الحال فإن الله سبحانه يعامل عبده معاملة من ليس كمثله شيء في أفعاله كما ليس كمثله شيء في صفاته، فإنه ما حرمه إلا ليعطيه، ولا أمرضه إلا ليشفيه، ولا أفقره إلا ليغنيه، ولا أماته إلا ليحييه، وما أخرج أبويه من الجنة إلا ليعيدهما إليها على أكمل حال، كما قيل: «يا آدم لا تجزع من قولي لك: واخرج منها. فلك خلقتها وسأعيدك إليها».

فالرب تعالى ينعم على عبده بابتلائه، ويعطيه بحرمانه، ويصحبه بسقمه، فلا يستوحش عبده من حالة تسوؤه أصلاً إلا إذا كانت تغضبه عليه وتبعده منه.

السابع عشر: أن يعلم العبد بأن فيه جاذبين متضادين ومحنته بين الجاذبين. جاذب يجذبه إلى الرفيق الأعلى من أهل عليين، وجاذب يجذبه إلى أسفل سافلين، فكلما انقاد مع الجاذب الأعلى صعد درجة حتى ينتهي إلى حيث يليق به من المحل الأعلى، وكلما انقاد إلى الجاذب الأسفل نزل حتى ينتهي إلى موضعه من سجين. ومتى أراد أن يعلم هل هو مع الرفيق

الأعلى أو الأسفل، فلينظر أين روحه في هذا العالم فإنها إذا فارقت البدن تكون في الرفيق الأعلى الذي كانت تجذبه إليه في الدنيا، فهو أولى بها، فالمرء مع من أحب طبعاً وعقلاً وجزاءً، وكل مهتم بشيء فهو منجذب إليه وإلى أهله بالطبع، وكل امرىء يصبو إلى ما يناسبه وقد قال تعالى: ﴿ قلْ كلٌّ يعملُ على شاكلتِهِ ﴾ [الإسراء: ٨٤]، فالنفوس العلوية تنجذب بذاتها وهمها وأعمالها إلى أعلى، والنفوس السافلة إلى أسفل.

الثامن عشر: أن يعلم العبد أن تفريغ المحل شرط لنزول غيث الرحمة، وتنقيته من الدغل شرط لكمال الزرع، فمتى لم يفرغ المحل لم يصادف غيثُ الرحمة محلاً قابلاً ينزل فيه، وإن فرغه حتى أصابه غيث الرحمة، ولكنه لم ينقِّه من الدغل لم يكن الزرع زرعاً كاملاً، بل ربما غلب الدغل على الزرع فكان الحكم له، وهذا كالذي يصلح أرضه ويهيئها لقبول الزرع ويُودع فيها البذور وينتظر نزول الغيث، فإذا طهَّر العبد قلبهُ وفرَّغه من إرادة السوء وخواطره، وبذر فيه بذر الذكر والفكر والمحبة والإخلاص، وعرَّضه لهاب رياح الرحمة، وانتظر نزول غيث الرحمة في أوانه كان جديراً بحصول المغل، وكما يقوى الرجاء لنزول الغيث في وقته، كذلك يقوى الرجاء لإصابة نفحات الرحمن جل جلاله في الأوقات الفاضلة والأحوال الشريفة، ولا سيما إذا اجتمعت الهمم وتساعدت القلوب وعظم الجمع كجمع عرفة وجمع الاستسقاء وجمع أهل الجمعة، فإن اجتماع الهمم والأنفاس أسباب نصبها الله تعالى مقتضية لحصول الخير ونزول الرحمة، كما نصب سائر الأسباب مقتضية إلى مسبباتها، بل هذه الأسباب في حصول الرحمة أقوى من الأسباب الحسية في حصول مسبباتها، ولكن العبد بجهله يغلب عليه الشاهد على الغائب الحسن، وبظلمه يؤثر ما يحكم به هذا ويقتضيه على ما يحكم به الآخر ويقتضيه، ولو فرغ العبد المحل وهيأه وأصلحه لرأى العجائب، فإن فضل الله لا يردّه إلا المانع الذي في العبد، فلو زال ذلك المانع لسارع إليه الفضل من كل صوب، فتأمل حال نهر

عظيم يسقي كل أرض يمر عليها فحصل بينه وبين بعض الأرض المعطشة المجدبة سِكْرٌ وسد كثيف، فصاحبُها يشكو الجدب والنهر إلى جانب أرضه.

التاسع عشر: أن يعلم العبد أن الله سبحانه خلقه لبقاءٍ لا فناء له، ولعز لا ذل معه، وأمن لا خوف فيه، وغناء لا فقر معه، ولذة لا ألم معها، وكمال لا نقص فيه، وامتحنه في هذه الدار بالبقاء الذي يسرع إليه الفناء، والعز الذي يقارنه الذل ويعقبه الذل، والأمن الذي معه الخوف وبعده الخوف. وكذلك الغناء واللذة والفرح والسرور والنعيم الذي هنا مشوب بضده، لأنه يتعقبه ضده وهو سريع الزوال، فغلط أكثر الخلق في هذا المقام إذ طلبوا النعيم والبقاء والعز والملك والجاه في غير محله ففاتهم في محله، وأكثرهم لم يظفر بما طلبه من ذلك، والذي ظفر به إنما هو متاع قليل والزوال قريب فإنه سريع الزوال عنه؛ والرسل صلوات الله وسلامه عليهم إنما جاؤوا بالدعوة إلى النعيم المقيم والملك الكبير، فمن أجابهم حصل له ألذ ما في الدنيا وأطيبه، فكان عيشه فيها أطيب من عيش الملوك فمن دونهم، فإن الزهد في الدنيا ملك حاضر، والشيطان يحسد المؤمن عليه أعظم حسد، فيحرص كل الحرص على أن لا يصل إليه، فإن العبد إذا ملك شهوته وغضبه فانقادا معه لداعي الدين فهو المَلِك حقاً، لأن صاحب هذا المُلك حر، والمِلك المنقاد لشهوته وغضبه عبد شهوته وغضبه، فهو مسخر مملوك في زي مالك يقوده زمام الشهوة والغضب كما يقاد البعير، فالمغرور المخدوع يقطع نظره على الملك الظاهر الذي صورته ملك وباطنه رق، وعلى الشهوة التي أولها لذة وآخرها حسرة، والبصير الموفق يعبر نظره من الأوائل إلى الأواخر، ومن المبادىء إلى العواقب، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

العشرون: أن لا يغتر العبد باعتقاده أن مجرد العلم بما ذكرنا كاف في حصول المقصود، بل لا بد أن يضيف إليه بذل الجهد في استعماله، واستفراغ الوسع والطاقة فيه، وملاك ذلك الخروج عن العوائد فإنها أعداء

الكمال والفلاح، فلا أفلح من استمر مع عوائده أبداً. ويستعين على الخروج عن العوائد بالهرب عن مظان الفتنة والبعد عنها ما أمكنه، وقد قال النبي ﷺ: «ومن سمعَ بالدجال فلينأ عنه» فما استعين على التخلص من الشر بمثل البعد عن أسبابه ومظانه.

وها هنا لطيفة للشيطان لا يتخلص منها إلا حاذق، وهي أن يظهر له في مظان الشر بعض شيء من الخير ويدعوه إلى تحصيله، فإذا قرب منه ألقاه في الشبكة، والله أعلم.

الباب الثالث عشر

في بيان أن الإنسان لا يستغني عن الصبر في حال من الأحوال

فإنه بين أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه، ونهي يجب عليه اجتنابه وتركه، وقَدَرٍ يجري عليه اتفاقاً، ونعمة يجب عليه شكر المنعم عليها، وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه فالصبر لازم له إلى الممات، وكل ما يلقى العبد في هذه الدار لا يخلو من نوعين: أحدهما يوافق هواه ومراده، والآخر يخالفه، وهو محتاج إلى الصبر في كل منهما. أما النوع الموافق لغرضه فكالصحة والسلامة والجاه والمال وأنواع الملاذ المباحة، وهو أحوج شيء إلى الصبر فيها من وجوه:

أحدها: أن لا يركن إليها ولا يغتر بها، ولا تحمله على البطر والأشر والفرح المذموم الذي لا يحب الله أهله.

الثاني: أن لا ينهمك في نيلها ويبالغ في استقصائها، فإنها تنقلب إلى أضدادها، فمن بالغ في الأكل والشرب والجماع انقلب ذلك إلى ضده، وحرم الأكل والشرب والجماع.

الثالث: أن يصبر على أداء حق الله فيها ولا يضيعه فيسلبها.

الرابع: أن يصبر عن صرفها في الحرام، فلا يمكن نفسه من كل ما

تريده منها فإنها توقعه في الحرام، فإن احترز كل الاحتراز أوقعته في المكروه، ولا يصبر على السراء إلا الصِّدِّيقون.

قال بعض السلف: البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلا الصديقون، وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: «ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر». ولذلك حذَّر الله عباده من فتنة المال والأزواج والأولاد، فقال تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أموالُكُم ولا أولَادُكُم عن ذِكْر الله ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿ يَا أيها الَّذين آمنوا إنَّ من أزوَاجِكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ﴾ [التغابن: ١٤]. وليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس أنها عداوة البغضاء والمحادة، بل إنما هي عداوة المحبة الصادة للآباء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر، كما في جامع الترمذي من حديث إسرائيل، حدثنا سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا إن من أزواجِكُم وأولادِكُمْ عدواً لكم فاحذورهم ﴾ قال: هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة فأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله ﷺ، فلما أتوا رسول الله ورأوا الناس قد فقهوا في الدين همّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم ﴾ الآية. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده، وفي الحديث: «الولد مبخلة مجبنة»، وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، قال: حدثني زيد بن واقد، قال: حدثني عبدالله بن بريدة، قال: سمعت أبي يقول: كان رسول الله ﷺ يخطبنا، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال: «صدق الله ﴿ إنما أموالكُم وأولادكُم فتنة ﴾ [التغابن: ١٥]. نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما». وهذا من كمال رحمته ﷺ ولطفه بالصغار وشفقته

عليهم، وهو تعليم منه للأمة الرحمة والشفقة واللطف بالصغار.

فصل: وإنما كان الصبر على السراء شديداً لأنه مقرون بالقدرة، والجائع عند غيبة الطعام أقدر منه على الصبر عند حضوره، وكذلك الشبق عند غيبة المرأة أصبر منه عند حضورها.

فصل: وأما النوع الثاني المخالف للهوى فلا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي، أو لا يرتبط أوله باختياره كالمصائب، أو يرتبط أوله باختياره ولكن لا اختيار له في إزالته بعد الدخول فيه، فها هنا ثلاثة أقسام:

أحدها: **ما يرتبط باختياره** وهو جميع أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية، فأما الطاعة فالعبد محتاج إلى الصبر عليها، لأن النفس بطبعها تنفر عن كثير من العبودية، أما في الصلاة فلما في طبعها من الكسل وإيثار الراحة ولا سيما إذا اتفق مع ذلك قسوة القلب ورين الذنب، والميل إلى الشهوات ومخالطة أهل الغفلة، فلا يكاد العبد مع هذه الأمور وغيرها أن يفعلها، وإن فعلها مع ذلك كان متكلفاً غائب القلب، ذاهلاً عنها طالباً لفراقها كالجالس إلى الجيفة.

وأما الزكاة فلما فيها ـ أي النفس ـ من الشح والبخل، وكذلك الحج والجهاد للأمرين جميعاً طبعاً. ويحتاج العبد ها هنا إلى الصبر في ثلاثة أحوال: أحدها قبل الشروع فيها بتصحيح النية والإخلاص، وتجنب دواعي الرياء والسمعة، وعقد العزم على توفية المأمورية حقها.

الحالة الثانية: الصبر حال العمل فيلازم العبد الصبر عن دواعي التقصير فيه والتفريط، ويلازم الصبر على استصحاب ذكر النية وعلى حضور القلب بين يدي المعبود، وأن لا ينساه في أمره، فليس الشأن في فعل المأمور بل الشأن كل الشأن أن لا ينسى الآمر حال الإتيان بأمره، بل يكون مستصحباً لذكره في أمره. فهذه عبادة العبيد المخلصين لله، فهو محتاج إلى الصبر على توفية العبادة حقها بالقيام بأدائها وأركانها وواجباتها وسننها، وإلى

الصبر على استصحاب ذكر المعبود فيها ولا يشتغل عنه بعبادته، فلا يعطله حضوره مع الله بقلبه عن قيام جوارحه بعبوديته، ولا يعطله قيام الجوارح بالعبودية عن حضور قلبه بين يديه سبحانه.

الحالة الثالثة: الصبر بعد الفراغ من العمل وذلك من وجوه:

أحدها: أن يصبر نفسه عن الإتيان بما يبطل عمله، قال تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تُبطلوا صدقاتِكم بالمن والأذى ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فليس الشأن الإتيان بالطاعة، إنما الشأن في حفظها مما يبطلها.

الثاني: أن يصبر عن رؤيتها والعجب بها والتكبر والتعظم بها، فإن هذا أضر عليه من كثير من المعاصي الظاهرة.

الثالث: أن يصبر عن نقلها من ديوان السر إلى ديوان العلانية فإن العبد يعمل العمل سراً بينه وبين الله سبحانه فيكتب في ديوان السر، فإن تحدث به نقل إلى ديوان العلانية، فلا يظن أن بساط الصبر انطوى بالفراغ من العمل.

فصل: وأما الصبر عن المعاصي فأمره ظاهر، وأعظم ما يعين عليه قطع المألوفات ومفارقة الأعوان عليها في المجالسة والمحادثة وقطع العوائد، فإن للعادة طبيعة خاصة، فإذا انضافت الشهوة إلى العادة تظاهر جندان من جند الشيطان فلا يقوى باعث الدين على قهرهما.

فصل: القسم الثاني ما لا يدخل تحت الاختيار، وليس للعبد حيلة في دفعه كالمصائب التي لا صنع للعبد فيها، كموت من يعز عليه، وسرقة ماله، ومرضه ونحو ذلك، وهذا نوعان: أحدهما ما لا صنع للعبد الآدمي فيه، والثاني ما أصابه من جهة آدمي مثله كالسّب والضرب وغيرهما. فالنوع الأول للعبد فيه أربع مقامات: أحدها مقام العجز، وهو مقام الجزع والشكوى والسخط، وهذا ما لا يفعله إلا أقل الناس عقلاً وديناً ومروءة، وهو أعظم المصيبتين.

المقام الثاني: مقام الصبر إما لله وإما للمروءة الإنسانية.

المقام الثالث: مقام الرضا، وهو أعلى من مقام الصبر، وفي وجوبه نزاع، والصبر متفق على وجوبه.

المقام الرابع: مقام الشكر، وهو أعلى من مقام الرضا، فإنه يشهد البلية نعمة فيشكر المبتلي عليها.

وأما النوع الثاني: وهو ما أصابه من قبل الناس فله فيه هذه المقامات، ويضاف إليه أربعة أخر، أحدها مقام العفو والصفح، والثاني: مقام سلامة القلب من إرادة التشفي والانتقام، وفراغه من ألم مطالعة الجناية كل وقت وضيقه بها. الثالث: مقام شهود القدر، وأنه وإن كان ظالماً بإيصال هذا الأذى إليك فالذي قدره عليك وأجراه على يد هذا الظالم ليس بظالم، وأذى الناس مثل الحر والبرد لا حيلة في دفعه، فالمتسخط من أذى الحر والبرد غير حازم، والكل جار بالقدر وإن اختلفت طرقه وأسبابه.

المقام الرابع: مقام الإحسان إلى المسيء ومقابلة إساءته بإحسانك، وفي هذا المقام من الفوائد والمصالح ما لا يعلمه إلا الله، فإن فات العبد هذا المقام العالي فلا يرضى لنفسه بأخس المقامات وأسفلها.

فصل: القسم الثالث: ما يكون وروده باختياره، فإذا تمكن لم يكن له اختيار ولا حيلة في دفعه، وهذا كالعشق أوله اختيار وآخره اضطرار، وكالتعرض لأسباب الأمراض والآلام التي لا حيلة في دفعها بعد مباشرة أسبابها، كما لا حيلة في دفع السُّكْرِ بعد تناول المُسْكِر، فهذا كان فرضه الصبر عنه في أوله، فلما فاته بقي فرضه الصبر عليه في آخره، وأن لا يطيع داعي هواه ونفسه، وللشيطان ها هنا دسيسة عجيبة، وهي أن يخيل إليه أن نيل بعض ما منع قد يتعين عليه أو يباح له على سبيل التداوي، وغايته أن يكون كالتداوي بالخمر والنجاسة، وقد أجازه كثير من الفقهاء، وهذا من أعظم الجهل، فإن هذا التداوي لا يزيل الداء بل يزيده ويقويه، وكم ممن

تداوى بذلك فكان هلاك دينه ودنياه في هذا الدواء، بل الدواء النافع لهذا الداء الصبر والتقوى، كما قال تعالى: ﴿ وإن تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا فإنَّ ذلكَ من عزمِ الأمور ﴾ [آل عمران: ١٨٦]. وقال: ﴿ إنه من يَتَّقِ ويصبرْ فإن اللَّهَ لا يضيعُ أجرَ المحسنين ﴾ [يوسف: ٩٠]، فالصبر والتقوى دواء كل داء من أدواء الدين، ولا يستغني أحدهما عن صاحبه.

فإن قيل: فهل يثاب على الصبر في هذا القسم إذا كان عاصياً مفرطاً يتعاطى أسبابه؟ وهل يكون معاقباً على ما تُولد منه وهو غير اختياري له؟

قيل: نعم، إذا صبر لله تعالى وندم على ما تعاطاه من السبب المحظور أثيب على صبره لأنه جهاد منه لنفسه وهو عمل صالح، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

وأما عقوبته على ما تولد منه فإنه يستحق العقوبة على السبب وما تولد منه، كما يُعاقب السكران على ما جناه في حال سكره، فإذا كان السبب محظوراً لم يكن السكران معذوراً، فإن الله سبحانه يعاقب على الأسباب المحرمة وعلى ما تولد منها، كما يثيب على الأسباب المأمور بها وعلى ما يتولد منها، ولذا كان من دعا إلى بدعة وضلالة فعليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه، لأن اتباعهم تولد عن فعله، ولذلك كان على ابن آدم القاتل لأخيه كِفْلُ من ذنبِ كل قاتلٍ إلى يوم القيامة، وقد قال تعالى: ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملةً يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ [النحل: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أثقالَهُم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ [العنكبوت: ١٣].

فإن قيل: فكيف التوبة من هذا المتولد وليس من فعله؟ والإنسان إنما يتوب عما يتعلق باختياره قبل التوبة منه بالندم عليه، وعدم إجابة دواعيه وموجباته وحبس النفس عن ذلك، فإن كان المتولد متعلقاً بالغير فتوبته مع ذلك برفعه عن الغير بحسب الإمكان، ولهذا كان من توبة الداعي إلى

البدعة أن يبين أن ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة، وأن الهدى في ضده كما شرط تعالى في توبة أهل الكتاب الذين كان ذنبهم كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى ليضلوا الناس بذلك أن يصلحوا العمل في نفوسهم، ويبينوا للناس ما كانوا يكتمونهم إياه، فقال: ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيَّناه للناس في الكتاب أولئكَ يلعنُهم اللهُ ويلعنُهم اللاعنون، إلا الذين تابوا وأصلحُوا وبيَّنوا فأولئك أتوبُ عليهم وأنا التوابُ الرحيم ﴾ [البقرة: ١٥٩].

وهذا ما شرط في توبة المنافقين الذين كان ذنبهم إفساد قلوب ضعفاء المؤمنين، وتحيزهم واعتصامهم باليهود والمشركين أعداء الرسول، وإظهارهم الإسلام رياء وسمعة: أن يصلحوا بدل إفسادهم، وأن يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالكفار من أهل الكتاب والمشركين، وأن يخلصوا دينهم لله بدل إظهارهم رياء وسمعة، فهكذا تفهم شرائط التوبة وحقيقتها، والله المستعان.

الباب الرابع عشر

في بيان أشق الصبر على النفوس

مشقة الصبر بحسب قوة الداعي إلى الفعل وسهولته على العبد، فإذا اجتمع في الفعل هذان الأمران كان الصبر عنه أشق شيء على الصابر، وإن فقدا معاً سَهُل الصبر عنه، وإن وجد أحدهما وفقد الآخر سهل الصبر من وجه وصعب من وجه، فمن لا داعي له إلى القتل والسرقة وشرب المسكر وأنواع الفواحش، ولا هو سهل عليه، فصبره عنه من أيسر شيء وأسهله، ومن اشتد داعيه إلى ذلك وسهل عليه فعله فصبره عنه أشق شيءٍ عليه، ولهذا كان صبر السلطان عن الظلم وصبر الشاب عن الفاحشة وصبر الغني عن تناول اللذات والشهوات عند الله بمكان.

وفي المسند وغيره عن النبي ﷺ: «عجبَ ربُّك من شابٍّ ليست له

صبوة»، ولذلك استحق المذكورون في الحديث الذين يظلهم الله في ظل عرشه لكمال صبرهم ومشقته، فإن صبر الإمام المتسلط على العدل في قسمه وحكمه ورضاه وغضبه، وصبر الشاب على عبادة الله ومخالفة هواه، وصبر الرجل على ملازمة المسجد، وصبر المتصدق على إخفاء الصدقة حتى عن بعضه، وصبر المدعو إلى الفاحشة مع كمال جمال الداعي ومنصبه، وصبر المتحابين في الله على ذلك في حال اجتماعهما وافتراقهما، وصبر الباكي من خشية الله على كتمان ذلك وعدم إظهاره للناس من أشق الصبر، ولهذا كانت عقوبة الشيخ الزاني والملك الكذاب والفقير المختال أشد العقوبة لسهولة الصبر عن هذه الأشياء المحرمات عليهم لضعف دواعيها في حقهم، فكان تركهم الصبر عنها مع سهولته عليهم دليلاً على تمردهم على الله وعتوِّهم عليه.

ولهذا كان الصبر عن معاصي اللسان والفرج من أصعب أنواع الصبر لشدة الداعي إليهما وسهولتهما، فإن معاصي اللسان فاكهة الإنسان، كالنميمة والغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً، وحكاية كلام الناس والطعن على من يبغضه، ومدح من يحبه ونحو ذلك، فتتفق قوة الداعي وتيسر حركة اللسان فيضعف الصبر، ولهذا قال ﷺ لمعاذ: «أمسك عليك لسانك، فقال: «وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به»؟ فقال: «وهل يكبُّ الناسَ في النار على مناخرهم إلا حصائدُ ألسنتهم»، ولا سيما إذا صارت المعاصي اللسانية معتادة للعبد فإنه يعز عليه الصبر عنها، ولهذا تجد الرجل يقوم الليل ويصوم النهار، ويتورع من استناده إلى وسادة حرير لحظة واحدة، يطلق لسانه في الغيبة والنميمة والتفكه في أعراض الخلق، وربما خصَّ أهل الصلاح والعلم بالله والدين والقول على الله ما لا يعلم، وكثير ممن تجده يتورع عن الدقائق من الحرام والقطرة من الخمر، ومثل رأس الإبرة من النجاسة؛ لا يبالي بارتكاب الحرام، كما يحكى أن رجلاً خلا بامرأة أجنبية، فلما أراد مواقعتها قال: يا هذه! غطي وجهك، فإن

النظر إلى وجه الأجنبية حرام!!. وقد سأل رجل عبدالله بن عمر عن دم البعوض؟ فقال: انظروا إلى هؤلاء! يسألوني عن دم البعوض وقد قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ.

واتفق لي قريب من هذه الحكاية: كنت في حال الإحرام فأتاني قوم من الأعراب المعروفين بقتل النفوس والإغارة على الأموال يسألوني عن قتل المُحْرِمِ القملَ؟ فقلت: يا عجباً لقوم لا يتورعون عن قتل النفس التي حرم الله قتلها، ويسألون عن قتل القملة في الإحرام.

والمقصود أن اختلاف شدة الصبر في أنواع المعاصي وآحادها يكون باختلاف داعيه إلى تلك المعصية في قوتها وضعفها، ويُذكر عن علي رضي الله عنه أنه قال: «الصبر ثلاثة: فصبرٌ على المصيبة، وصبرٌ على الطاعة، وصبر عن المعصية، فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة، ومن صبر على الطاعة حتى يؤديها كما أمر الله كتب الله له ستمائة درجة، ومن صبر عن المعصية خوفاً من الله ورجاءَ ما عنده كتب الله له تسعمائة درجة».

وقال ميمون بن مهران «الصبر صبران: فالصبر على المصيبة حسن، وأفضل منه الصبر عن المعصية».

وقال الفضيل في قوله تعالى: ﴿سلامٌ عليكم بما صبرتُم﴾ [الرعد: ٢٤]، صبروا على ما أمروا به وصبروا عما نهوا عنه. وكأنه جعل الصبر على المصيبة داخلاً في قسم المأمور به، والله أعلم.

الباب الخامس عشر

في ذكر ما ورد في الصبر من نصوص الكتاب العزيز

قال الإمام أحمد رحمه الله: «ذكر الله سبحانه الصبر في القرآن في تسعين موضعاً». ونحن نذكُر الأنواع التي سيق فيها الصبر، وهي عدة أنواع:

أحدها: الأمر به كقوله: ﴿ واصبرْ وما صبرُكَ إلّا بالله ﴾ [النحل: ١٢٧]، ﴿ واصبرْ لحكمِ ربِّك ﴾ [الطور: ٤٨].

الثاني: النهي عما يضاده كقوله: ﴿ ولا تستعجلْ لهم ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وقوله: ﴿ ولا تَهِنُوا ولا تَحْزَنُوا ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. وقوله: ﴿ ولا تكنْ كصاحبِ الحوت ﴾ [القلم: ٤٨]. وبالجملة فكل ما نهى عنه فإنه يضاد الصبر المأمور به.

الثالث: تعليق الفلاح به كقوله: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتَّقُوا اللهَ لعلَّكم تُفلحون ﴾ [آل عمران ٢٠٠]، فعلق الفلاح بمجموع هذه الأمور.

الرابع: الإخبار عن مضاعفة أجر الصابرين على غيره كقوله: ﴿ أولئكَ يُؤتونَ أجرَهم مرتين بما صَبَرُوا ﴾ [القصص: ٥٤]. وقوله: ﴿ إنما يُوَفَّى الصابرونَ أجرَهم بغير حساب ﴾ [الزمر: ١٠]. قال سليمان ابن القاسم: «كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر» قال الله تعالى: ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾، قال: كالماء المنهمر.

الخامس: تعليق الإمامة في الدين به وباليقين، قال الله تعالى: ﴿ وجعلنا منهم أئمةً يهدونَ بأمرنا لما صَبَرُوا وكانُوا بآياتِنا يُوقنون ﴾ [السجدة: ٢٤]، فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

السادس: ظفرهم بمعية الله سبحانه لهم، قال تعالى: ﴿ إنَّ اللَّهَ مع الصابرين ﴾ [الأنفال: ٤٩]. قال أبو علي الدقاق: «فاز الصابرون بعز الدارين لأنهم نالوا من الله معيته».

السابع: أنه جمع للصابرين ثلاثة أمور لم يجمعها لغيرهم وهي الصلاة منه عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، قال تعالى: ﴿ وبشِّر الصابرينَ الذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلواتٌ من ربِّهم ورحمةٌ وأولئك هم المهتدون ﴾ [البقرة: ١٥٥]. وقال

بعض السلف وقد عُزِّي على مصيبة نالته، فقال: مالي لا أصبر وقد وعدني الله على الصبر ثلاث خصال كل خصلة منها خير من الدنيا وما عليها.

الثامن: أنه سبحانه جعل الصبر عوناً وعدة. وأمر بالاستعانة به، فقال: ﴿ واستعينُوا بالصبرِ والصَّلاة ﴾، [البقرة: ٤٥]، فمن لا صبر له لا عون له.

التاسع: أنه سبحانه علَّق النصر بالصبر والتقوى فقال تعالى: ﴿ بلى إنْ تصبروا وتَتَّقُوا ويأتوكُم من فورِهم هذا يُمْدِدْكُم ربُّكم بخمسةِ آلافٍ من الملائكة مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٥]. لهذا قال النبي ﷺ «واعلم أن النصر مع الصبر».

العاشر: أنه سبحانه جعل الصبر والتقوى جُنَّة عظيمة من كيد العدو ومكره فما استجنَّ العبد من ذلك جنة أعظم منهما. قال تعالى: ﴿ وإنْ تصبُروا وتَتَّقُوا لا يضرُّكم كيدهُم شيئاً ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

الحادي عشر: أنه سبحانه أخبر أن ملائكته تسلم عليهم في الجنة بصبرهم كما قال: ﴿ والملائكةُ يدخلونَ عليهم من كلِّ باب سلامٌ عليكم بما صبرتُم فنعمَ عُقبَى الدار ﴾ [الرعد: ٢٤].

الثاني عشر: أنه سبحانه أباح لهم أن يعاقبوا على ما عوقبوا به، ثم أقسم قسماً مؤكداً غاية التأكيد أن صبرهم خير لهم فقال: ﴿ وَإِنْ عاقبتُم فعاقبوا بمثل ما عُوقبتُم به ولئن صبرتُم لهو خيرٌ للصابرين ﴾ [النحل: ١٢٦] فتأمل هذا التأكيد بالقَسَم المدلول عليه بالواو ثم باللام بعده ثم باللام التي في الجواب.

الثالث عشر: أنه سبحانه رتب المغفرة والأجر الكبير على الصبر والعمل الصالح فقال: ﴿ إلا الذين صَبَرُوا وعملوا الصالحاتِ أولئكَ لهم مغفرةٌ وأجرٌ كبير ﴾ [هود: ١١]. وهؤلاء ثنية[1] الله من نوع الإنسان

(١) ثنية الله: أي الذين استثناهم الله.

المذموم الموصوف باليأس والكفر عند المصيبة، والفرح والفخر عند النعمة، ولا خلاص من هذا الذم إلا بالصبر والعمل الصالح، كما لا تنال المغفرة والأجر الكبير إلا بهما.

الرابع عشر: أنه سبحانه جعل الصبر على المصائب من عزم الأمور، أي مما يعزم من الأمور التي إنما يعزم على أجلها وأشرفها فقال: ﴿ ولمن صَبَرَ وغفرَ إنَّ ذلكَ لمن عزمِ الأمور ﴾ [الشورى: ٤٣]. وقال لقمان لابنه: ﴿ وَأْمُرْ بالمعروفِ وانهُ عن المنكر واصبرْ على ما أصابكَ إنَّ ذلكَ من عزم الأمور ﴾ [لقمان: ١٧].

الخامس عشر: أنه سبحانه وعد المؤمنين بالنصر والظفر، وهي كلمته التي سبقت لهم وهي الكلمة الحسنى، وأخبر أنه إنما أنالهم ذلك بالصبر، فقال تعالى: ﴿ وتمَّتْ كلمةُ ربِّك الحسنى على بني إسرائيلَ بما صَبَرُوا ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

السادس عشر: أنه سبحانه علق محبته بالصبر وجعلها لأهله فقال: ﴿ وكأيّن من نبيٍّ قاتلَ معه ربِّيونَ كثيرٌ، فما وَهَنُوا لِمَا أصابَهم في سبيل الله وما ضَعُفُوا وما استكانُوا واللَّهُ يُحبُّ الصابرين ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

السابع عشر: أنه سبحانه قال عن خصال الخير: إنه لا يلقاها إلا الصابرون، في موضعين من كتابه، في سورة القصص في قصة قارون، وأن الذين أوتوا العِلم قالوا للذين تمنوا مثل ما أوتي ﴿ ويلكم ثوابُ الله خيرٌ لمن آمنَ وعملَ صالحاً ولا يُلَقَّاهَا إلا الصابرون ﴾ [القصص: ٨٠]. وفي سورة حميم السجدة، حيث أمر العبد أن يدفع بالتي هي أحسن، فإذا فعل ذلك صار الذي بينه وبينه عداوة كأنه حبيب قريب، ثم قال: ﴿ وما يُلَقَّاهَا إلا الذين صَبَرُوا وما يُلَقَّاهَا إلا ذو حظٍّ عظيم ﴾ [فصلت: ٣٥].

الثامن عشر: أنه سبحانه أخبر أنه إنما ينتفع بآياته ويتعظ بها الصَّبَّارُ الشكور فقال تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أنْ أخرجْ قومَكَ من

الظلماتِ إلى النُّور وذكِّرهم بأيَّامِ الله، إنَّ في ذلك لآياتٍ لكلِّ صبَّار شَكُور﴾ [إبراهيم: ٥]. وقال تعالى في لقمان: ﴿ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته، إن في ذلك لآيات لكل صبَّار شكور﴾ [لقمان: ٣١]. وقال في قصة سبأ: ﴿وجَعلناهُم أحاديثَ ومَزَّقناهُم كلَّ مُمزَّق، إنَّ في ذلك لآياتٍ لكلِّ صبَّارٍ شَكُور﴾ [سبأ: ١٩]. وقال تعالى: ﴿ومن آياتِه الجوار في البحر كالأعلام، إن يشأْ يسكن الريح فيظْلَلْن رواكد على ظهره، إن في ذلك لآيات لكل صبَّار شكور﴾ [الشورى: ٣٣]. فهذه أربع مواضعٍ في القرآن تدل على أن آيات الرب إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر.

التاسع عشر: أنه أثنى على عبده أيوب بأحسن الثناء على صبره فقال: ﴿إنا وجدنَاهُ صَابراً نعمَ العبدُ إنَّهُ أواب﴾ [ص: ٤٤]، فأطلق عليه نعم العبد بكونه وجده صابراً. وهذا يدل على أن من لم يصبر إذا ابتُلي فإنه بئس العبد.

العشرون: أنه سبحانه حكم بالخسران حكماً عاماً على كل من لم يؤمن ولم يكن من أهل الحق والصبر، وهذا يدل على أنه لا رابح سواهم فقال تعالى: ﴿والعصر. إنَّ الإنسانَ لَفي خُسْر. إلا الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ. وتَوَاصَوْا بالحقِّ وتَوَاصَوْا بالصبر﴾ [سورة العصر: ١ - ٣] ولهذا قال الشافعي: لو فكر الناس كلهم في هذه الآية لوسعتهم، وذلك أن العبد كماله في تكميل قوّتيه: قوة العلم وقوة العمل، وهما الإيمان والعمل الصالح، وكما هو محتاج إلى تكميل نفسه فهو محتاج إلى تكميل غيره، وهو التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وأخية ذلك وقاعدته وساقه الذي يقوم عليه إنما هو الصبر.

الحادي والعشرون: أنه سبحانه خص أهل الميمنة بأنهم أهل الصبر والمرحمة الذين قامت بهم هاتان الخصلتان ووصوا بهما غيرهم فقال تعالى: ﴿ثم كان من الذين آمنوا وتَوَاصَوْا بالصبرِ وَتَواصَوْا بالمَرْحَمَةِ، أولئك

أصحابُ الْمَيْمَنَة ﴾ [البلد: ١٧]. وهذا حصر لأصحاب الميمنة فيمن قام به هذان الوصفان، والناس بالنسبة إليهما أربعة أقسام هؤلاء خير الأقسام، وشرهم من لا صبر له ولا رحمة فيه، ويليه من له صبر ولا رحمة عنده، ويليه القسم الرابع وهو من له رحمة ورقة ولكن لا صبر له.

الثاني والعشرون: أنه سبحانه قرن الصبر بأركان الإسلام ومقامات الإيمان كلها، فقرنه بالصلاة، كقوله: ﴿ واستعينوا بالصبر والصَّلاة ﴾ [البقرة: ٤٥]. وقرنه بالأعمال الصالحة عموماً، كقوله: ﴿ إلا الذينَ صَبَرُوا وعَملوا الصالحاتِ ﴾ [هود: ١١]. وجعله قرين التقوى، كقوله: ﴿ إنَّه مَنْ يَتَّقِ ويصبرْ ﴾ [يوسف: ٩٠]. وجعله قرين الشكر كقوله: ﴿ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لكلِّ صَبَّارٍ شَكور ﴾ [إبراهيم: ٥]. وجعله قرين الحق، كقوله: ﴿ وتَوَاصَوْا بالحقِّ وتواصَوْا بالصبر ﴾ [العصر: ٣]. وجعله قرين الرحمة، كقوله: ﴿ وتَوَاصَوْا بالصبرِ وتَوَاصَوْا بالمرحمةِ ﴾ [البلد: ١٧]. وجعله قرين اليقين كقوله: ﴿ لَمَّا صَبَرُوا وكانوا بآياتِنا يُوقنون ﴾ [السجدة: ٢٤]. وجعله قرين الصدق كقوله: ﴿ والصَّادقينَ والصَّادقاتِ والصَّابرينَ والصَّابراتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وجعله سبب محبته ومعيّته ونصره وعونه وحسن جزائه، ويكفي بعض ذلك شرفاً وفضلاً، والله أعلم.

الباب السادس عشر

في ذكر ما ورد فيه من نصوص السنة

في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ أتى على امرأة تبكي على صبيٍ لها، فقال لها: اتقي الله واصبري، فقالت: وما تبالي بمصيبتي، فلما ذهب قيل لها: إنه رسول الله ﷺ، فأخذها مثل الموت، فأتت بابه فلم تجد على بابه بوَّابين، فقالت يا رسول الله: لم أعرفك، فقال: إنما الصبر عند أول صدمة». وفي لفظ «عند الصدمة

الأولى». وقوله: الصبر عند الصدمة الأولى مثل قوله: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه وقت الغضب»، فإن مفاجآت المصيبة لها روعة تزعزع القلب وتزعجه بصدمتها، فإن صبر للصدمة الأولى انكسر حدها وضعفت قوتها فهان عليه استدامة الصبر، وأيضاً فإن المصيبة ترد على القلب وهو غير موطَّن لها فتزعجه وهي الصدمة الأولى، وأما إذا وردت عليه بعد ذلك توطن لها وعلم أنه لا بد له منها فيصير صبره شبيه الاضطرار. وهذه المرأة لما علمت أن جزعها لا يجدي عليها شيئاً جاءت تعتذر إلى النبي ﷺ كأنها تقول له قد صبرت، فأخبرها أن الصبر إنما هو عند الصدمة الأولى.

ويدل على هذا المعنى ما رواه سعيد بن زربي، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «مر النبي ﷺ على امرأة جاثمة على قبر تبكي، فقال لها: يا أَمَةَ الله اتقِ الله واصبري، قالت: يا عبدالله ثكلى، قال: يا أمة الله اتقي الله واصبري، قالت: يا عبد الله لو كنت مصاباً عذرتني، قال: يا أمة الله اتقي الله واصبري، قالت: يا عبد الله قد أسمَعْتَ فانصرف عني، فمضى رسول الله ﷺ واتبعه رجل من أصحابه فوقف على المرأة فقال لها: ما قال لك الرجل الذاهب؟ قالت: قال لي كذا وكذا وأجبته بكذا. قال هل تعرفينه، قالت: لا. قال: ذلك رسول الله ﷺ، قال: فوثبت مسرعةً نحوه حتى انتهت إليه، وهي تقول: أنا أصبر، أنا أصبر يا رسول الله، فقال: الصبر عند الصدمة الأولى، الصبر عند الصدمة الأولى».

قال ابن أبي الدنيا حدثنا بشر بن الوليد وصالح الكندي بن مالك، قالا: حدثنا سعيد بن زربي فذكره. فهذا السياق يبين معنى الحديث، قال أبو عبيد: معناه أن كل ذي رزية فإن قصاراه الصبر، ولكنه إنما يحمد على صبره عند حدة المصيبة وحرارتها.

قلت: وفي الحديث أنواع من العلم: أحدها: وجوب الصبر على

المصائب، وأنه من التقوى التي أُمر العبد بها. الثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن سكر المصيبة وشدتها لا يسقطه عن الآمر الناهي. الثالث: تكرار الأمر والنهي مرة بعد مرة حتى يعذر المرء إلى ربه. الرابع: احتج به على جواز زيارة النساء للقبور، فإنه ﷺ لم ينكر عليها الزيارة وإنما أمرها بالصبر، ولو كانت الزيارة حراماً لبين لها حكمها وهذا كان في اخر الأمر، فإن أبا هريرة إنما أسلم بعد السنة السابعة، وأجيب عن هذا بأنه ﷺ قد أمرها بتقوى الله والصبر وهذا إنكار منه لحالها من الزيارة والبكاء، ويدل عليه أنها لما علمت أن الآمر لها من تجب طاعته انصرفت مسرعة، وأيضاً فأبو هريرة لم يخبر أنه شهد هذه القصة فلا يدل الحديث على أنها بعد إسلامه ولو شهدها. فَلَعْنَتُهُ ﷺ لزائراتِ القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج كان بعد هذا في مرض موته، وفي عدم تعريفه لها بنفسه في تلك الحال التي لا تملك فيها نفسها شفقة منه ورحمة بها إذا عرفها بنفسه في تلك الحال فربما لم تسمع منه فتهلك، وكأن معصيتها له وهي لا تعلم أنه رسول الله أخف من معصيتها له لو علمت، فهذا من كمال رأفته صلوات الله وسلامه عليه.

وفي صحيح مسلم عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم اءْجُرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها». قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟! أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إني قلتها فأخلف الله لي رسوله، فأرسل إليَّ رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له، فقلت: إن لي بنتاً وأنا غيور، فقال: أما بنتها فأدعو الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يذهب بالغيرة، فتزوجتُ رسول الله ﷺ.

وعند أبي داود في هذا الحديث عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا

أصابت أحدكم مصيبة فليقل: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم عندك أحتسب مصيبتي فاٴجُرني فيها وأبدلني خيراً منها»، فلما احتضر أبو سلمة قال: «اللهم اخلفني في أهلي خيراً مني»، فلما قبض، قالت أم سلمة: «إنا لله وإنا إليه راجعون، عند الله أحتسب مصيبتي». فانظر عاقبة الصبر والاسترجاع ومتابعة الرسول والرضاء عن الله إلى ما آلت إليه، وأنالت أم سلمة نكاح أكرم الخلق على الله.

وفي جامع الترمذي ومسند الإمام أحمد وصحيح ابن حبان عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقول: حمدك واسترجعك، فيقول: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسمُّوه بيت الحمد».

وفي صحيح البخاري من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه ثم صبر عوضته عنهما الجنة»، يريد عينيه. وعند الترمذي في الحديث: «إذا أخذت كريمتي عبدي في الدنيا لم يكن له جزاء عندي إلا الجنة». وفي الترمذي أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: من أذهبتُ حبيبتيه فصبر واحتسب لم أرض له ثواباً دون الجنة».

وفي سنن أبي داود من حديث عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «لا يرضى الله لعبده المؤمن إذا ذهب بصفيه من أهل الأرض واحتسبه بثواب دون الجنة»، وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «يقول الله عزَّ وجل: ما لعبدي المؤمن جزاء إذا قبضت صفيّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة». وفي صحيحه أيضاً عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى. قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إني أصرع وإني أتكشف فادع الله لي، قال: إن شئت صبرتِ ولك

الجنة، وإن شئتِ دعوتُ الله تعالى أن يعافيك، فقالت: أصبر. فقالت: إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف فدعا لها.

وفي الموطأ من حديث عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مرض العبد بعث إليه ملكين، فقال: انظر ماذا يقول لعُوَّاده، فإن هو إذ جاؤوه حمدالله وأثنى عليه رفعا ذلك إلى الله وهو أعلم، فيقول: إن لعبدي علي إن توفيته أن أدخله الجنة، وإن أنا شفيته أن أبدله لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، وأن أكفِّر عنه سيئاته». وفي صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله: «إذا جمع الله الخلائق نادى مناد أين أهل الصبر؟ فيقوم ناس وهم قليلون، فينطلقون سراعاً إلى الجنة، فتلقاهم الملائكة فيقولون: إنا نراكم سراعاً إلى الجنة فمن أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الفضل، فيقولون: ما كان فضلكم؟ فيقولون كنا إذا ظُلمنا صبرنا، وإذا أُسيء إلينا غفرنا، وإذا جُهل علينا حلمنا، فيقال لهم: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين».

وفي الصحيحين «أن رسول الله ﷺ قسم مالاً، فقال بعض الناس: هذه قسمة ما أُريد بها وجه الله، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

وفي الصحيحين من حديث الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفَّر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها». وفيهما أيضاً من حديث أبي سعيد وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وَصَب ولا همٍّ ولا حزن ولا أذىً ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه».

وفي صحيح مسلم من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة، وحطَّ عنه بها خطيئة»، وفي المسند من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا يزال

البلاء بالمؤمن أو المؤمنة في جسده وفي ماله وفي ولده حتى يلقى الله وما عليه خطيئة». وفي الصحيح من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله! أي الناس أشد بلاءً؟ قال: الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة».

وفي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك وعكاً شديداً، قال: فقلت يا رسول الله! إنك لتوعك وعكاً شديداً؟ قال: أجل إني لأوعك كما يوعك رجلان منكم، قلت: إن لك لأجرين؟ قال: نعم، والذي نفسي بيده ما على الأرض مسلم يصيبه أذىً من مرض فما سواه إلَّا حطَّ الله عنه به خطاياه كما تحط الشجرة ورقها». وفي الصحيحين أيضاً من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيت الوجع أشد منه على رسول الله ﷺ».

وفي بعض المسانيد مرفوعاً «أن الرجل لتكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمل حتى يُبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك». ويروى عن عائشة رضي الله عنها عنه ﷺ «إذا اشتكى المؤمن أخلصه ذلك من الذنوب كما يخلص الكير الخبث من الحديد»، وفي صحيح البخاري من حديث خباب ابن الأرت قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد ببردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يُؤخذ الرجل فيُحفر له في الأرض فيُجعل فيها ثم يُؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيُجعل نصفين ويُمشّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون».

وفي لفظ للبخاري: «أتيت رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة، فقلنا: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمر

وجهه؛ فقال: لقد كان الرجل ليمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه».

وقد حمل أهل العلم قول خباب: «شكونا إلى رسول الله ﷺ حر الرمضاء فلم يشكنا» على هذا المحمل، وقال: شكوا إليه حر الرمضاء الذي كان يصيب جباههم وأكفهم من تعذيب الكفار فلم يشكهم، وإنما دلهم على الصبر.

وهذا الوجه أنسب من تفسير من فسر ذلك بالسجود على الرمضاء، واحتج به على وجوب مباشرة المصلي بالجبهة لثلاثة أوجه:

أحدها: أنه لا دليل في اللفظ على ذلك.

الثاني: أنهم قد أخبروا أنهم كانوا مع النبي ﷺ فكان أحدهم إذا لم يستطع أن يسجد على الأرض يبسط ثوبه فيسجد عليه، والظاهر أن هذا يبلغه ويعلم به، وقد أقرهم عليه.

الثالث: أن شدة الحر في الحجاز تمنع من مباشرة الجبهة والكف للأرض بل يكاد يشوي الوجه والكف، فلا يتمكن من الطمأنينة في السجود، ويذهب خشوع الصلاة ويتضرر البدن ويتعرض للمرض، والشريعة لا تأتي بهذا، فتأمل رواية خباب لهذا والذي قبله، واجمع بين اللفظين والمعنيين، والله أعلم. ولا تستوحش من قوله: «فلم يشكنا» فإنه هو معنى إعراضه عن شكايتهم وإخباره لهم بصبر من قبلهم، والله أعلم.

وفي الصحيح من حديث أسامة بن زيد قال: «أرسلت ابنةُ النبي ﷺ إليه أن ابناً لي احتضر فائْتِنَا، فأرسل يقريها السلام ويقول: إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فرفع الصبي إلى رسول الله فأقعده في حجره

ونَفْسُهُ تَقَعْقَع كأنها شِنّ[1] ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ قال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب من يشاء من عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء».

وفي سنن النسائي عن ابن عباس قال: «احتضرت ابنة رسول الله ﷺ صغيرة فأخذها رسول الله ﷺ وضمها إلى صدره، ثم وضع يده عليها وهي بين يدي رسول الله ﷺ، فبكت أم أيمن، فقلت لها: أتبكين ورسول الله ﷺ عندك؟ فقالت: مالي لا أبكي ورسول الله ﷺ يبكي، فقال رسول الله ﷺ: إني لست أبكي ولكنها رحمة، ثم قال رسول الله ﷺ: المؤمن بخير على كل حال، تنزع نفسه من بين جنبيه وهو يحمد الله عز وجل».

وفي صحيح البخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال: «اشتكى ابن لأبي طلحة فمات وأبو طلحة خارج، فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئاً وسجَّته[2] في جانب البيت، فلما جاء أبو طلحة قال كيف الغلام؟ قالت: قد هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد استراح، فظن أبو طلحة أنها صادقة، قال فبات معها، فلما أصبح اغتسل، فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات، فصلى مع رسول الله ﷺ ثم أخبره بما كان منهما، فقال رسول الله ﷺ: لعل الله أن يبارك لكما في ليلتكما، قال ابن عيينة: فقال رجل من الأنصار: فرأيت له تسعة أولاد كلهم قد قرأوا القرآن». وفي موطأ مالك عن القاسم بن محمد قال «هلكت امرأة لي فأتاني محمد بن كعب القرظي يعزيني فيها، فقال: إنه قد كان في بني إسرائيل رجل فقيه عابد عالم مجتهد، وكانت له امرأة وكان بها معجباً، فماتت فوجد[3] عليها وجداً شديداً حتى خلا في بيت وأغلق على نفسه واحتجب عن الناس، فلم يكن

---

(١) تقعقع: أي تتحرك وتضطرب بصوت، والشن: القربة البالية.
(٢) سجته: أي غطته.
(٣) وَجَد: حَزِنَ.

يدخل عليه أحد، ثم إن امرأة من بني إسرائيل سمعت به فجاءته فقالت: إن لي إليه حاجة أستفتيه فيها ليس يجزيني إلا أن أشافهه بها، فذهب الناس ولزمت الباب، فأخبر فأذن لها فقالت: أستفتيك في أمر. قال: وما هو؟ قالت: إني استعرت من جارة حلياً فكنت ألبسه وأعيره زماناً، ثم إنها أرسلت إلي فيه أفأرده إليها؟ قال: نعم. قالت: والله إنه مكث عندي زماناً، فقال: ذلك أحق لردك إياه. فقالت له: يرحمك الله أفتأسف على ما أعارك الله ثم أخذه منك وهو أحق به منك. فأبصر ما كان فيه ونفعه الله بقولها.

وفي جامع الترمذي عن شيخ من بني مرة قال: قدمت الكوفة فأخبرت عن بلال بن أبي بردة، فقلت: إن فيه لمعتبر، فأتيته وهو محبوس في داره التي كان بنى وإذا كل شيء منه قد تغير من العذاب والضرب، وإذا هو في قشاش، فقلت له: الحمد لله يا بلال لقد رأيتك تمر بنا وأنت تمسك أنفك من غير غبار وأنت في حالتك هذه فكيف صبرك اليوم؟ فقال ممن أنت؟ قلت: من بني مرة بن عباد. قال: ألا أحدثك حديثاً عسى أن ينفعك الله به؟ قلت: هات، قال حدثني أبو بردة عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: لا يصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر. قال: وقرأ ﴿ وما أصابَكُم من مصيبةٍ فبما كسبتْ أيديكُم ويعفو عن كثير ﴾ [الشورى: ٣٠].

وفي الصحيحين من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي أن نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»، فتضمنت هذه الدعوة العفو عنهم والدعاء لهم والاعتذار عنهم والاستعطاف بقول: لقومي. وفي الموطأ من حديث عبد الرحمن بن القاسم قال: «قال رسول الله ﷺ ليعز المسلمين في مصائبهم المصيبة بي» وفي الترمذي من حديث يحيى بن وثاب، عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ قال: قال

رسول الله ﷺ: «الذي يُخالط النَّاسَ ويصبر على أذاهم خيرٌ من الذي لا يُخالط الناس ولا يصبر على أذاهم» قال الترمذي: كان شعبة يرى أن الشيخ ابن عمر.

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسعَ من الصبر». وفي بعض المسانيد عنه ﷺ أنه قال: «قال الله عز وجل: إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً».

وفي جامع الترمذي عنه ﷺ «إذا أحب الله قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط». وفي بعض المسانيد عنه ﷺ مرفوعاً: «إذا أراد الله بعبد خيراً صبَّ عليه البلاء صباً». وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ دخل على امرأة فقال: «مالك تزفزفين؟[1] قالت: الحمى لا بارك الله فيها، قال لا تسُبِّي الحمَّى إنها تُذهب خطايا بني آدم، كما يُذهب الكيرُ خبثَ الحديد».

ويذكر عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من وُعك ليلةً فصبر ورضي عن الله تعالى خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه». وقال الحسن: «إنه ليكفر عن العبد خطاياه كلها بحمَّى ليلة». وفي المسند وغيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: دخلْتُ على النبي ﷺ وهو محموم، فوضعتُ يدي من فوق القطيفة فوجدت حرارة الحمَّى، فقلت: ما أشد حمَّاك يا رسول الله! قال إنا كذلك معاشر الأنبياء يُضاعف علينا الوجع ليضاعف لنا الأجر، قال: قلت: يا رسول الله؛ فأي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء قلت: ثم من؟ قال: الصالحون، إن كان الرجل ليبتُلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباء فيجوبها فيلبسها، وإن كان الرجل ليبتلى

---

(١) تَزَفْزِفِين: تضم التاء وتفتح، معناها: تتحركين حركة شديدة، أي ترعَدين.

بالقمل حتى يقتله القمل، وكان ذلك أحب إليهم من العطاء إليكم».

وقال عقبة بن عامر الجهني: قال رسول الله ﷺ: «ليس من عمل إلا وهو يختم عليه، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة: يا ربنا عبدك فلان قد حبسته عن العمل فيقول الرب تعالى: «اختموا له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت». وقال أبو هريرة: «إذا مرض العبد المسلم نودي صاحب اليمين أنْ أجْرِ على عبدي صالح ما كان يعمل وهو صحيح، ويقال لصاحب الشمال أقصر عن عبدي ما دام في وثاقي»، فقال رجل عند أبي هريرة يا ليتني لا أزال ضاجعاً، فقال أبو هريرة: كره العبد الخطايا ذكره ابن أبي الدنيا.

وذكر أيضاً عن هلال بن بساق قال: كنا قعوداً عند عمار بن ياسر فذكروا الأوجاع، فقال أعرابي ما اشتكيتُ قط، فقال عمار: ما أنت منا أو لست منا، إن المسلم يُبتلى ببلاء فتحط عنه ذنوبه كما يحط الورق من الشجر، وإن الكافر أو قال الفاجر يُبتلى ببلية، فمثله مثل البعير إن أطلق لم يدر لم أطلق، وإن عقل لم يدر لم عقل. وذكر عن أبي معمر الأزدي قال: كنا إذا سمعنا من ابن مسعود شيئاً نكرهه سكتنا حتى يفسره لنا، فقال لنا ذات يوم: ألا إن السقم لا يكتب له أجر فساءنا ذلك وكبر علينا، فقال: ولكن يكفر به الخطيئة، فسرنا ذلك وأعجبنا.

وهذا من كمال علمه وفقهه رضي الله عنه فإن الأجر إنما يكون على الأعمال الاختيارية ومما تولد منها، كما ذكر الله سبحانه النوعين في آخر سورة التوبة في قوله في المباشر من الإنفاق وقطع الوادي ﴿إلا كتب لهم﴾ وفي المتولد من إصابة الظمأ والنصب والمخمصة في سبيله وغيظ الكفار ﴿إلا كتبَ لهم به عملٌ صالحٌ﴾ [التوبة: ١٢١]، فالثواب مرتبط بهذين النوعين، وأما الأسقام والمصائب فإن ثوابها تكفير الخطايا، ولهذا قال تعالى: ﴿وما أصابَكُم من مصيبةٍ فبما كسبتْ أيديكُم﴾ [الشورى: ٣٠] والنبي ﷺ إنما قال في المصائب: «كفر الله بها من خطاياه» كما تقدم ذكر ألفاظه ﷺ،

وكذا قوله: «المرض حطة» فالطاعات ترفع الدرجات، والمصائب تحط السيئات. ولهذا قال ﷺ: من يرد الله به خيراً يصب منه، وقال ﷺ: «من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين» فهذا يرفعه وهذا يحط خطاياه.

وقال يزيد بن ميسرة: إن العبد ليمرض المرض وماله عند الله من عمل خير فيذكّره الله سبحانه بعض ما سلف من خطاياه فيخرج من عينه مثل رأس الذباب من الدمع من خشية الله فيبعثه الله، أن يبعثه مطهرّاً، أو يقبضه إن قبضه مطهراً. ولا يرد على هذا حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في ثواب من قبض الله ولده وثمرة فؤاده بأن يبني له بيتاً في الجنة ويسميه بيت الحمد.

وقال زياد بن زياد مولى ابن عباس رضي الله عنه وعن أصحاب النبي ﷺ قال: «دخلنا على النبي ﷺ وهو موعوك - أي محموم - فقلنا أح أح بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله، ما أشد وعكك! قال: إنا معاشر الأنبياء يضاعف علينا البلاء تضعيفاً، قال: قلنا: سبحان الله! قال: أفعجبتم، إن كان النبي من الأنبياء ليقتله القمل! قلنا: سبحان الله! قال: أفعجبتم إن أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل، قلنا: سبحان الله! قال: أفعجبتم، إن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء».

أح: بالحاء المهملة، هو المعروف من كلامهم، ومن قال بالخاء المعجمة فقد غلط. وذكر النسائي عن عبيدة بن حذيفة عن عمته فاطمة قالت: «أتيت النبي ﷺ في نسوة نعوده فإذا سقاء معلقة يقطر ماؤها من شدة ما كان يجد من الحمى، فقلنا: لو دعوت الله يا رسول الله أن يذهبها عنك؟ فقال: «إن أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم».

وقال مسروق عن عائشة رضي الله عنها: «ما رأيت أحداً أشد وجعاً من رسول الله ﷺ، كان يشدد عليه إذا مرض حتى إنه لربما مكث خمس

عشرة لا ينام، وكان يأخذ عرق الكلية وهو الخاصرة، فقلنا: يا رسول الله: «لو دعوت الله فيكشف عنك، قال: إنا معاشر الأنبياء يشدد علينا الوجع ليكفر عنا».

وفي المسند والنسائي من حديث أبي سعيد قال: «قال رجل: يا رسول الله! أرأيت هذه الأمراض التي تصيبنا مالنا بها؟ قال: كفارات. فقال: أبيّ بن كعب: يا رسول الله وإن قلّتْ؟ قال: شوكة فما فوقها، قال فدعا أُبَيّ على نفسه عند ذلك أنْ لا يفارقه الوعك حتى يموت، ولا يشغله عن حج ولا عمرة ولا جهاد في سبيل الله وصلاة مكتوبة في جماعة، قال: فما مسَّ رجلٌ جلده بعدها إلا وجد حرها حتى مات». وقال عبدالله بن عمر: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا كان على طريقة حسنة من العبادة ثم مرض، قيل: للملك الموكل به اكتب له مثل عمله إذا كان طلقاً أو اكفته إلى ناقة طُلُق». بضم الطاء واللام إذا حل عقالها. وقال كفته إليه إذا ضمه إليه. ذكره ابن أبي الدنيا.

وذكر أيضاً عن أبي أُمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليجرب أحدكم بالبلاء وهو أعلم به كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار، فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز، فذلك الذي نجاه الله من السيئات، ومنهم من يخرج كالذهب دون ذلك فذلك الذي يشك بعض الشك، ومنهم من يخرج كالذهب الأسود، فذلك الذي قد افتتن». وذكر أيضاً من مراسيل الحسن البصري عن النبي ﷺ: «إن الله ليكفر عن المؤمن خطاياه كلها بحمى ليلة».

قال ابن أبي الدنيا قال ابن المبارك: هذا من الحديث الجيد، قال: وكانوا يرجون في حمى ليلة كفارة ما مضى من الذنوب.

وذكر عن أنس، أن رسول الله ﷺ دخل على رجل وهو يشتكي فقال: «قل: اللهم إني أسألك تعجيل عافيتك، وصبراً على بليتك، وخروجاً من الدنيا إلى رحمتك». وقالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول

الله ﷺ: «إن الحمَّى تحط الخطايا كما تحط الشجرة ورقها». وقال أبو هريرة وقد عاد مريضاً، فقال له: إن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول: هي ناري أسلّطها على عبدي المؤمن في الدنيا لتكون حظه من النار في الآخرة».

وقال مجاهد: الحمّى حظ كل مؤمن من النار ثم قرأ: ﴿وإِنْ مِنكُم إلا واردُها كان على ربِّك حَتْماً مَقْضِيّاً﴾ [مريم: ٧١] وهذا لم يرد به مجاهد تفسير الورود الذي في القرآن، فإن السياق يأبى حمله على الحمى قطعاً، وإنما مراده أن الله سبحانه وعد عباده فينجو منها سريعاً، والله أعلم.

ويدل عليه حديث أبي ريحانة عن النبي ﷺ: «الحمى كير من كير جهنم، وهي نصيب المؤمن من النار». وقال أنس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن إذا برأ وصح من مرضه كمثل البردة تقع من السماء في صفائها ولونها» ذكره ابن أبي الدنيا.

وذكر أبيّ أيضاً عن أمامة يرفعه: «ما من مسلم يصرع صرعةً من مرض إلا بُعث منها طاهراً»، وذكر عنه ﷺ: «مثل المؤمن حين يصيبه الوعك مثل الحديدة تدخل النار فيذهب خبثها ويبقى طيبها»، وذكر أيضاً عنه مرفوعاً: «إن العبد إذا مرض أوحى الله إلى ملائكته: يا ملائكتي: أنا قيدت عبدي بقيد من قيودي فإن أقبضه أغفر له، وإن أعافِهِ فجسد مغفور لا ذنب له».

وذكر عن سهل بن أنس الجهني، عن أبيه، عن جده قال: «دخلت على أبي الدرداء في مرضه فقلت: يا أبا الدرداء إنا نحب أن نصح ولا نمرض» فقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الصداع والمَلِيْلَة لا يزالان بالمؤمن وإن كان ذنبه مثل أحد حتى لا يدعان عليه من ذنبه مثقال حبة من خردل» المليلة فعيلة من التململ، وأصلها من الملة التي يخبز فيها.

وقالت أم سلمة عن النبي ﷺ: «ما ابتلى الله عبداً ببلاء وهو على طريق يكرهها إلا جعل الله ذلك البلاء له كفارةً وطهوراً ما لم ينزل ما أصابه من البلاء بغير الله أو يدعو غير الله يكشفه»، وقال عطية بن قيس: «مرض كعبٌ، فعاده رهط من أهل دمشق، فقالوا: كيف تجدك يا أبا إسحاق؟ قال: بخير، جسد أخذ بذنبه، إن شاء ربه عذبه وإن شاء رحمه، وإن بعثه بعثه خلقاً جديداً لا ذنب له»، وقال سعيد بن وهب: «دخلنا مع سلمان الفارسي على رجل من كندة نعوده، فقال سلمان: إن المسلم يبتلى فيكون كفارة لما مضى ومستعتباً فيما بقي، وإن الكافر يُبتلى فمثله كمثل البعير أطلق فلم يدر لم أطلق، وعُقل فلم يدر لم عقل».

وذكر أيضاً عن أبي أيوب الأنصاري قال: عاد رسول الله ﷺ رجلاً من الأنصار وأكبَّ عليه، فسأله فقال: يا نبي الله! ما غمضت منذ سبع، فقال رسول الله: «أي أخي! اصبر تخرجْ من ذنوبك كما دخلت فيها» ثم قال رسول الله: «ساعات الأمراض يُذهبن ساعات الخطايا».

وفي النسائي من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال لأعرابي: «هل أخذتك أمُّ مِلْدم؟ قال: يا رسول الله: وما أمُّ مِلْدم؟ قال: حر يكون بين الجلد والدم، قال: ما وجدت هذا، قال: يا أعرابي! هل أخذك الصداع؟ قال: يا رسول الله وما الصداع؟ قال: عرق يضرب على الإنسان في رأسه. قال: ما وجدت هذا، فلما ولّى قال رسول الله ﷺ: من أحبَّ أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا».

وقالت: أم سُليم: «مرضتُ، فعادني رسول الله ﷺ، فقال: يا أم سليم: أتعرفين النار والحديد وخبث الحديد؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال أبشري يا أم سليم فإنك إن تخلصي من وجعك هذا تخلصي منه كما يخلص الحديد من النار خبثه». وخرج بعض الصحابة زائراً لرجل من إخوانه، فبلغه أنه شَاكٍ قبل أن يدخل عليه، فقال: أتيتك زائراً وأتيتك عائداً ومبشراً! قال: كيف جمعت هذا؟ قال: خرجت وأنا أريد زيارتك

فبلغني شكاتك فصارت عيادة، وأبشرك بشيء سمعته من رسول الله ﷺ قال: «إذا سبقت للعبد من الله منزلة لم يبلغها ـ أو قال: لم ينلها ـ بعمله ابتلاه الله في جسده أو في ولده أو في ماله، ثم صبره حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله عز وجل».

وقال الحسن ـ وذكر الوجع ـ: أما والله ما هو بشرٍ أيامٍ المسلم، أيام نُوِّرت له فيها مراحله، وذُكِّر فيها ما نسي من معاده، وكُفِّر بها عنه من خطاياه. وقال بعض السلف: لولا مصائب الدنيا لوردنا الآخرة مفاليس.

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: «انتهى رسول الله ﷺ إلى شجرة فهزَّها حتى سقط من ورقها ما شاء الله، ثم قال: «المصائب والأوجاع في إحباط ذنوب أمتي أسرع مني في هذه الشجرة». وذكر ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه: «ما من مسلم إلا وكّل الله به ملكين من ملائكته لا يفارقانه حتى يقضي الله بأمره بإحدى الحسنيين، إما بموت وإما بحياة، فإذا قال له العوَّاد: كيف نجدك؟ قال: أَحْمَدُ الله أجدني والله المحمود بخير. قال له الملكان: أبشر بدم هو خير من دمك، وصحة هي خير من صحتك. وإن قال: أجدني مجهوداً في بلاء شديد قال له الملكان: أبشر بدم هو شر من دمك وبلاء أطول من بلائك».

ولا يناقض هذا قول النبي ﷺ في وجعه: «وارأساه»، وقول سعد: يا رسول الله! قد اشتد بي الوجع وأنا ذو مال، وقول عائشة: وارأساه، فإن هذا إنما قيل على وجه الإخبار، لا على وجه شكوى الرب تعالى إلى العوّاد، فإذا حمد المريض الله ثم أخبر بعلته لم يكن شكوى منه، وإن أخبر بها تبرُّماً وتسخُّطاً كان شكوى منه، فالكلمة الواحدة قد يثاب عليها، وقد يعاقب بالنية والقصد.

وقال ثابت البناني: انطلقنا مع الحسن إلى صفوان بن محرز نعوده، فخرج إلينا ابنه وقال: هو مبطون لا تستطيعون أن تدخلوا عليه. فقال

الحسن: إن أباك إن يؤخذ اليوم من لحمه ودمه فيوجد فيه خير من أن يأكله التراب.

وقال ثابت أيضاً: دخلنا على ربيعة بن الحارث نعوده وهو ثقيل فقال: إنه من كان في مثل حالتي هذه ملأت الآخرة قلبه، وكانت الدنيا أصغر في عينيه من ذباب. ويذكر عن أنس عن النبي ﷺ قال: «إذا مرض العبد ثلاثة أيام خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» ويذكر عنه ﷺ: «لا ترد دعوة المريض حتى يبرأ».

وذكر ابن أبي الدنيا، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كنتُ مع رسول الله ﷺ جالساً فتبسم، فقلنا: يا رسول الله! مم تبسمت؟ قال: تعجباً للمؤمن من جزعه من السقم، ولو كان يعلم ماله في السقم أحب أن يكون سقيماً حتى يلقى الله، ثم تبسم ثانية ورفع رأسه إلى السماء، قلنا: يا رسول الله! مم تبسمت ورفعت رأسك إلى السماء؟ قال عجبت من مَلَكين نزلا من السماء يلتمسان عبداً مؤمناً في مصلّاه يصلِّي فلا يجداه، فعرجا إلى الله فقالا: يا رب عبدك فلان المؤمن كنا نكتب له من العمل في يوم وليلة كذا وكذا، فوجدنا قد حبسته في حبالك فلم نكتب له شيئاً من عمله، فقال: اكتبوا لعبدي عمله الذي كان يعمله في يومه وليلته ولا تنقصوا منه شيئاً، فعليَّ أجر ما حبسته وله أجر ما كان يعمل».

ويذكر عنه ﷺ: «من وُعك ليلة فصبر ورضي بها عن الله عز وجل خرج من ذنوبه كهيئة يوم ولدته أمه»، ومن مراسيل يحيى بن كثير قال: فقد رسولُ الله ﷺ سلمانَ، فسأل عنه، فأُخبر أنه عليل، فأتاه يعوده، فقال: «شفى الله سُقْمك، وعظَّم أجرك، وغفر ذنبك، ورزقك العافية في دينك وجسمك إلى منتهى أجلك، إن لك من وجعك خلالاً ثلاثة: أما الأولى: فتذكرة من ربك يُذكر بها، وأما الثانية: فتمحيص لما سلف من ذنوبك، وأما الثالثة: فادع بما شئت فإن المبتلى مجاب الدعوى».

وقال زياد بن الربيع: قلت لأُبيٍّ بن كعب: آية من كتاب الله قد

أحزنتني. قال: ما هي؟ قلت: ﴿من يعملْ سوءاً يُجز به﴾ [النساء: ٢٣] قال: ما كنت أراك إلا أفقه مما أرى، إن المؤمن لا يصيبه عثرة قدم، ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو الله أكثر. وسئلت عائشة عن هذه الآية فقالت: ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله، فقال النبي ﷺ: يا عائشة: هذه معاقبة الله تعالى لعبده بما يصيبه من الحمّى والمَليلة والشوكة وانقطاع شِسعه، حتى البضاعة يضعها في كمه فيفقدها، فيفزع لها، فيجدها في ضِبْنه، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج الذهب الأحمر من الكير»، ضِبن الإنسان ما تحت يده؛ يقال اضطبن كذا إذا حمله تحت يده.

وقال وهب بن منبه: لا يكون الرجل فقيهاً كامل الفقه حتى يعد البلاء نعمة ويعد الرخاء مصيبة، وذلك أن صاحب البلاء ينتظر الرخاء وصاحب الرخاء ينتظر البلاء.

وفي بعض كتب الله سبحانه: «إن الله ليصيبُ العبدَ بالأمر يكرهه وإنه ليحبه؛ لينظر كيف تضرعه إليه».

وقال كعب: أجد في التوراة: لولا أن يحزن عبدي المؤمن لعصبت الكافر بعصابة من حديد لا يصدع أبداً، وقال معروف الكرخي: «إن الله ليبتلي عبده المؤمن بالأسقام والأوجاع فيشكو إلى أصحابه، فيقول الله تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي ما ابتليتك بهذه الأوجاع والأسقام إلا لأغسلك من الذنوب فلا تشكني». وذكر ابن أبي الدنيا أن رجلاً قال: يا رسول الله: ما الأسقام؟ قال: «أو ما سقمت قط؟ قال: لا، فقال: قم عنا فلست مؤمناً».

وكان عبدالله بن مسعود قد اشتدت به العلة فدخل عليه بعض أصحابه يعوده وأهله تقول: نفسي فداكَ ما نطعمك؟ ما نسقيك؟ فأجابها بصوتٍ ضعيف: «بَليت الحرافيف وطالت الضجعة، والله ما يسرني أن الله نقصني منه قلامة ظفر».

وطلق خالد بن الوليد امرأة له ثم أحسن عليها الثناء، فقيل له: يا أبا سليمان! لأي شيء طلقتها؟ قال: ما طلقتها لأمر رابني منها ولا ساءني، ولكن لم يصبها عندي بلاء، ويذكر عنه ﷺ: «ما ضرب على مؤمن عرق إلا كتب الله له به حسنة وحطَّ به عنه سيئة ورفع له به درجة».

ولا ينافي هذا ما قدمناه من أن المصائب مكفرات لا غير، لأن حصول الحسنة إنما هو بصبره الاختياري عليها وهو عمل منه. وعاد رجل من المهاجرين مريضاً فقال: إن للمريض أربعاً: يرفع عنه القلم، ويكتب له من الأجر مثل ما كان يعمل في صحته، ويتبع المرض كل خطيئة من مفصل من مفاصله فيستخرجها، فإن عاش عاش مغفوراً له، وإن مات مات مغفوراً له، فقال المريض: اللهم لا أزال مضطجعاً.

وفي المسند عنه ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن»، وفي لفظٍ: «إن أمر المؤمن كله عجب: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له».

الباب السابع عشر

في الآثار الواردة عن الصحابة ومن بعدهم في فضيلة الصبر

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن مالك بن مغول، عن السفر قال: «مرض أبو بكر رضي الله عنه فعادوه فقالوا: ألا ندعو لك الطبيب؟ فقال: قد رآني الطبيب! قالوا: فأيُّ شيء قال لك؟ قال: إني فعّالٌ لما أريد.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مجاهد، قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وجدنا خير عيشنا بالصبر.

وقال أيضاً: أفضل عيش أدركناه بالصبر، ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريماً.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس بار الجسم، ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له، وقال الصبر مطية لا تكبو.

وقال الحسن: الصبر كنز من كنوز الخير لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده. وقال عمر بن عبد العزيز: ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضه مكانها الصبر إلا كان ما عوضه خيراً مما انتزعه. وقال ميمون بن مهران: ما نال أحد شيئاً من ختم الخير فما دونه إلا الصبر. وقال سليمان ابن القاسم: كل عمل يُعرف ثوابه إلا الصبر، قال الله تعالى: ﴿إنما يُوفَّى الصابرون أجرَهم بغير حساب﴾ [الزمر: ١٠] قال: كالماء المنهمر.

وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل وقت ينظر فيها، وفيها: ﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾ [الطور: ٤٨] وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو كان الصبر والشكر بعيرين لم أبال أيهما ركبت. وكان محمد بن شبرمة إذا نزل به بلاء قال: سحابة صيف ثم تنقشع، وقال سفيان بن عيينة في قوله تعالى: ﴿وجعلناهُم أئِمَّةً يهدونَ بأمرنا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤوساً، وقيل للأحنف بن قيس: ما الحلم؟ قال: أن تصبر على ما تكره قليلاً، وقال وهب: «مكتوب في الحكمة قصر السفه النصب، وقصر الحلم الراحة، وقصر الصبر الظفر. وقصر الشيء وقصاراه: غايته وثمرته.

وقدم عروة بن الزبير على الوليد بن عبد الملك ومعه ابنه محمد، وكان من أحسن الناس وجهاً، فدخل يوماً على الوليد في ثياب وشيٍ، وله غديرتان، وهو يضرب بيده، فقال الوليد: هكذا تكون فتيان قريش،

فعانه[1]، فخرج من عنده متوسناً، فوقع في إصطبل الدواب فلم تزل الدواب تطأه بأرجلها حتى مات، ثم إن الأَكَلَةَ وقعتْ في رجل عروة، فبعث إليه الوليد الأطباء، فقالوا: إن لم تقطعها سرت إلى باقي الجسد فتهلك، فعزم على قطعها، فنشروها بالمنشار، فلما صار المنشار إلى القصبة وضع رأسه على الوسادة ساعة فغشي عليه، ثم أفاق والعرق يتحدر على وجهه وهو يهلل ويكبر، فأخذها وجعل يقبلها في يده، ثم قال: أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أني ما مشيت بك إلى حرام ولا إلى معصية ولا إلى ما لا يرضي الله، ثم أمر بها فغسلت وطيبت وكفنت في قطيفة، ثم بعث بها إلى مقابر المسلمين، فلما قدم من عند الوليد المدينة تلقاه أهل بيته وأصدقاؤه يعزونه، فجعل يقول: ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نَصَبَاً﴾ [الكهف: ٦٢] ولم يزد عليه، ثم قال: لا أدخل المدينة، إنما أنا بها بين شامت بنكبة أو حاسد لنعمة، فمضى إلى قصره بالعقيق فأقام هنالك، فلما دخل قصره قال له عيسى بن طلحة: لا أباً لشانئيك، أرني هذه المصيبة التي نعزيك فيها، فكشف له عن ركبته، فقال له عيسى: أما والله ما كنا نعدك للصراع، قد أبقى الله أكثرك، عقلك ولسانك وبصرك ويداك وإحدى رجليك، فقال له: يا عيسى: ما عزاني أحد بمثل ما عزيتني به. ولما أرادوا قطع رجله قالوا له: لو سقيناك شيئاً كيلا تشعر بالوجع، فقال: إنما ابتلاني ليرى صبري أفأعارض أمره، وسئل ابنه هشام: كيف كان أبوك يصنع برجله التي قطعت إذا توضأ؟ قال كان يمسح عليها.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا سلام، قال: سمعت قتادة يقول: قال لقمان: وسأله رجل: أيُّ شيء خيراً؟ قال: صبر لا يتبعه أذى، قال: فأيُّ الناس خيراً؟ قال: الذي يرضى بما أوتي، قال: فأيُّ الناس أعلم؟ قال: الذي يأخذ من علم الناس إلى علمه. قيل: فما خير الكنز، من المال أو من العلم؟ قال: سبحان الله بل المؤمن العالم الذي إن

---

(١) فعانه: أي أصابه بعينه، حسده. ومتوسناً: من الوسن، وهو النعاس.

ابتغى عنده خيراً وجد، وإن لم يكن عنده كفَّ نفسه، وبحسب المؤمن أن يكفَّ نفسه، وقال حسان بن أبي جبلة: من بثَّ فلم يصبر، ورواه ابن أبي الدنيا مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وإن صحَّ فمعناه إلى المخلوق، لا من بثَّ إلى الله. وقال حسان بن أبي جبلة أيضاً في قوله تعالى: ﴿فصبرٌ جميل﴾ قال: لا شكوى فيه. ورفعه ابن أبي الدنيا أيضاً.

وقال مجاهد فصبر جميل: في غير جزع، وقال عمرو بن قيس: فصبر جميل، قال: الرضا بالمصيبة والتسليم. وقال بعض السلف: فصبر جميل: لا شكوى فيه، وقال همام، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وابيضّتْ عيناهُ من الحزن فهو كظيم﴾ [يوسف: ٨٤] قال: كظم على حزن فلم يقل إلا خيراً. وقال يحيى بن المختار، عن الحسن: الكظيم: الصبور. وقال همّام، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وابيضتْ عيناهُ من الحزن فهو كظيم﴾، أي كميد، أي كمد الحزن. وقال الحسن: ما جرعتين أحب إلى الله من جرعة مصيبة موجعة محزنة ردها صاحبها بحسن عزاء وصبر، وجرعة غيظ ردها بحلم.

وقال عبدالله بن المبارك: أخبرنا عبدالله بن لهيعة، عن عطاء بن دينار؛ أن سعيد بن جبير قال: «الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه، واحتسابه عند الله، ورجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر». فقوله اعتراف العبد لله بما أصابه منه؛ كأنه تفسير لقوله: ﴿إنا لله﴾، فيعترف أنه ملك لله يتصرف فيه مالكه بما يريد، وقوله: راجياً به ما عند الله؛ كأنه تفسير لقوله: ﴿وإنا إليه راجعون﴾ أَنْ نَرِدَ إليه فيجزينا على صبرنا ولا يضيع أجر المصيبة، وقوله: وقد يجزع الرجل وهو يتجلد: أي ليس الصبر بالتجلد وإنما هو حبس القلب عن التسخط على المقدور، ورد اللسان عن الشكوى، فمن تجلد وقلبه ساخط على القدر فليس بصابر.

وقال يونس بن يزيد سألت ربيعة بن أبي عبد الرحمن: ما منتهى الصبر؟ قال: أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه، وقال قيس

ابن الحجاج في قول الله: ﴿فاصبرْ صبراً جميلاً﴾ [المعارج: ٥] قال: أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يعرف من هو. وكان شمر إذا عزّى مصاباً قال: اصبر لما حكم ربك. وقال أبو عقيل: رأيت سالم بن عبدالله ابن عمر بيده سوط وعليه إزار في موت واقد بن عبدالله بن عمر لا يسمع صارخة إلا ضربها بالسوط.

قال ابن أبي الدنيا حدثني محمد بن جعفر بن مهران، قال: قالت امرأة من قريش:

أما والذي لا خلدَ إلا لوجهه ... ومن ليس في العزِّ المنيع له كفو
لئن كان بدءُ الصبر مراً مذاقه ... لقد يُجنى من غبته الثمرُ الحلو

قال وأنشدني عمرو بن بكير:

صبرْتُ فكان الصبرُ خيرَ مغبّةٍ ... وهل جزعٌ يُجدي علي فأجزع
ملكتُ دموعَ العين حتى رددتُها ... إلى ناظري فالعينُ في القلب تدمع

قال: وأنشدني أحمد بن موسى الثقفي:

نبئتُ خولةَ أمس قد جزعتْ ... من أن تنوبَ نوائبُ الدهر
لا تجزعي يا خولُ واصطبري ... إن الكرامَ بُنوا على الصبر

قال: وحدثني عبدالله بن محمد بن إسماعيل التيمي: أن رجلاً عزَّى رجلاً في ابنه فقال: إنما يستوجب على الله وعده من صبر له بحقه، فلا تجمع إلى ما أُصبت به من المصيبة الفجيعة بالأجر، فإنها أعظم المصيبتين عليك وأنكى الرزيتين لك والسلام. وعزَّى ابن أبي السماك رجلاً فقال: عليك بالصبر فبه يعمل من احتسب، وإليه يصير من جزع، وقال عمر بن عبد العزيز: أما الرضاء فمنزلة عزيزة أو منيعة، ولكن جعل الله في الصبر معولاً حسناً. ولما مات ابنٌ لعبد الملك صلَّى عليه، ثم قال: رحمك الله، لقد كنت لي وزيراً، وكنت لي معيناً. قال: والناس يبكون وما يقطر من

عينيه قطرة، وأصيب مطرف بن عبدالله في ابن له، فأتاه قوم يعزّونه، فخرج إليهم أحسن ما كان بِشْرَاً، ثم قال: إني لأستحي من الله أن أتضعضع لمصيبة. وقال عمرو بن دينار: قال عبيد بن عمير: ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب، ولكن الجزع القول السيء والظن السيء.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني الحسين بن عبد العزيز الحروزي: قد مات ابن لي نفيس، فقلت لأمه: اتق الله واحتسبيه واصبري، فقالت: مصيبتي أعظم من أن أفسدها بالجزع. قال ابن أبي الدنيا: وأخبرني عمر ابن بكير، عن شيخ من قريش، قال: مات الحسن بن الحصين أبو عبيد الله بن الحسن، وعبيد الله يومئذ قاضٍ على البصرة وأميراً، فكثر من يعزيه، فتذاكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره، فأجمعوا أنه إذا ترك شيئاً مما كان يصنعه فقد جزع.

وقال خالد بن أبي عثمان القرشي: كان سعيد بن جبير يعزيني في ابني، فرآني أطوف بالبيت متقنعاً، فكشف القناع عن رأسي وقال: الاستكانة من الجزع.

فصلٌ: وأما قول كثير من الفقهاء من أصحابنا وغيرهم: لا بأس أن يجعلَ المُصابُ على رأسه ثوباً يُعرف به، قالوا: لأن التعزية سنة، وفي ذلك تيسير لمعرفته حتى يعزيه، ففيه نظر، وأنكره شيخنا، ولا ريب أن السلف لم يكونوا يفعلون شيئاً من ذلك، ولا نُقل هذا عن أحد الصحابة والتابعين، والآثار المتقدمة كلُّها صريحة في ردِّ هذا القول، وقد أنكر إسحق بن راهويه أن يترك لبس ما عادته لبسه، وقال: هو من الجزع.

وبالجملة فعادتهم أنهم لم يكونوا يغيّرون شيئاً من زيهم قبل المصيبة، ولا يتركون ما كانوا يعملونه، فهذا كله مناف للصبر، والله سبحانه أعلم.

الباب الثامن عشر

في ذكر أمور تتعلق بالمصيبة من البكاء والندب وشقِّ الثياب ودعوى الجاهلية ونحوها

فمنها البكاء على الميت، ومذهب أحمد وأبي حنيفة أجازاه قبل الموت وبعده، واختاره أبو إسحاق الشيرازي، وكرهه الشافعي وكثير من أصحابه بعد الموت، ورخصوا فيه قبل خروج الروح، واحتجوا بحديث جابر بن عتيك؛ أن رسول الله ﷺ جاء يعود عبدالله بن ثابت فوجده قد غاب، فصاح به فلم يجب، فاسترجع وقال: غلبنا عليك يا أبا الربيع، فصاح النسوة وبكينَ، فجعل ابن عتيك يسكتهن، فقال رسول الله ﷺ: «دعهن فإذا وجب فلا تبكينّ باكية، قالوا: وما الوجوب يا رسول الله؟ قال الموت». رواه أبو داود والنسائي.

قالوا: وفي الصحيحين من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه». وهذا إنما هو بعد الموت، وأما قبله فلا يسمى ميتاً. وعن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ لما قدم من أحد سمع نساء بني عبد الأشهل يبكين على هلكاهن، فقال: لكن حمزة لا بواكي له، فجاءت نساء الأنصار فبكين على حمزة عنده فاستيقظ فقال: ويحهن أتين هاهنا يبكين حتى الآن! مروهن فليرجعن ولا يبكين على هالك بعد اليوم» رواه الإمام أحمد، وهذا صريح في نسخ الإباحة المتقدمة.

والفرق بين ما قبل الموت وبعده أنه قبل الموت يرجى، فيكون البكاء عليه حذراً، فإذا مات انقطع الرجاء وأُبرم القضاء فلا ينفع البكاء.

قال المجوزون: قال جابر بن عبدالله: «أصيب أبي يوم أحد فجعلت أبكي، فجعلوا ينهونني، ورسول الله ﷺ لا ينهاني، فجعلت عمتي فاطمة تبكي، فقال النبي ﷺ: تبكين؟ - أو لا تبكين - ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعوه» متفق عليه.